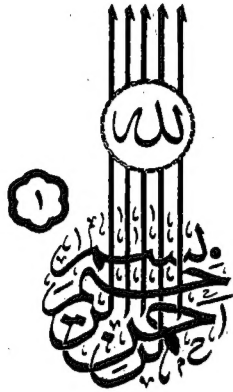


الرَّسُولُ ﷺ وَالْيَهُودُ
وَجْهًا لَوَجْهًا

(٢)

الفكر اليهودي

تأليف
الدكتور سعد المرصفي



الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

٢٥/٢

الفكر اليهودي

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP

Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes



مكتبة المنار الإسلامية

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع الشيخ - تلفون: ٤٥ - ٢١١٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - صرغ: ٤٣٠٩٩ - حولي - الزمر القريدي 32045
Kuwait - Hawali - Hawali Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawali, Postal Code No. 32045

مقدمة

الفكر اليهودي هو عصب العنصرية اليهودية... وبالرغم من الالتحام العضوى بين ماهو عقيدة وما هو عنصرية، وبالرغم من أن نتيجة ذلك كانت من الناحية الاجتماعية إبقاء تلك الطائفة الشريرة معزولة عن الإنسانية - عبر التاريخ - فإن تأثير الفكر اليهودي كان عميقا فى الفكر البشرى، بقدر ما كان متأثرا بالوثنيات والانحرافات!

وهو مجموعة من العقائد التى دخلها التحريف، والطقوس التى قامت على التخريف، تراكمت وتبلورت، حتى أصبحت خطرا على الإنسانية!

وحسبنا أن ندرك أن اليهودى فى كل مراحل تاريخه ذو طبيعة لا تتغير، فهو من ناحية العقيدة وثنى، ومن ناحية الأخلاق فى الدرك الهابط دون الحيوان، وقد استحالت نفسه إلى اللؤم والحسة والفساد والإفساد فى الأرض، بحيث لم يعد فيها موضع يصلح لبذرة خير أو معروف، لأن غرائز الشر والتوحش تنمرت فى تلك النفس الخبيثة، حتى أصبحت هكذا!!

ومن ثم استخدمت الصهيونية من ألوان الحرب والكيد والمكر ضد الدين القيم، ما يعجز الخيال الشاخص عن تصويره بحال من الأحوال!

وهى فى هذه الفترة تعالج إزالة الإسلام بجملته، وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة.... لذلك تستخدم جميع الأساليب التى جربتها منذ عصر الرسالة والرسول ﷺ... بالإضافة إلى ما استحدثته منها، جملة واحدة.... كل ذلك وفق ما يمليه الفكر اليهودي!

ومن هنا كان الحديث عن معاول الفكر اليهودي - كما تصوره أسفارهم - ضروريا، لأن المعرفة من المكونات الرئيسة لمعالم دوافع هذه الحرب المستعرة، وكانت الحاجة ماسة إلى عرض ماجاء فى الكتاب والسنة فى هذا المقام، رجاء أن يكون فى ذلك ذكرى تفيدينا فى مواجهة هؤلاء اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين!

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتى:

الفصل الأول: عقيدة اليهود من أسفارهم.

الفصل الثاني: أضواء على التوراة.

الفصل الثالث: الأسفار وأنبياء بني إسرائيل.

الفصل الرابع: ضلالات التلمود.

والله أسأل: التوفيق والسداد، والعون والرشاد، إنه سميع مجيب؛

٢٨ رجب ١٤١٢ هـ

الكويت في :

١ فبراير ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفي)

الفصل الأول

عقيدة اليهود من أسفارهم

إله كنعانى - « عزير ابن الله » - آلهة أخرى -

انحطاط حيوانى.



إله كنعانى:

يقول الأستاذ أحمد عطار: (١) فى كل مراحل التاريخ الإنسانى، كان اليهودى ذا طبيعة لا تتغير، فهو من ناحية عقيدته وثنى، وعندما ألقى إليه التوحيد لم يفهمه حق الفهم - إلا قلة نادرة - وكانت عقيدة التوحيد غير متفقة مع فطرته وطبيعته وسلوكه !

وأسفار اليهود المقدسة - وفيما يطلقون عليه التوراة التى تتكون من خمسة أسفار - تصور حقيقة اليهودى، وأسفارهم هذه تدينهم وتوثقهم، وتذكر أن اليهود قذارة البشر !

فمن ناحية العقيدة عبدوا « يهوه » أو « ألوهيم » ووحده، ولكنه لم يكن توحيد موسى الحق، بل هو قائم على الشرك والتعدد، وأشبه ما يكون بالجنسية !

فهم يوحدون « يهوه » ولكنهم لا يكفرون بغيره، بل يعترفون بآلهة الآخرين، كما يعترف إنسان بجنسيته، ويعترف إلى جانب ذلك بالجنسيات الأخرى !

بل وصل بهم الأمر إلى أن جعلوا أفضل من فيهم، وهم الأنبياء والرسل ليسوا بأهل لأن يكونوا كذلك - كما سيأتى - إذا اعتمدنا توراتهم وأسفارهم المقدسة، لأن فى أقوالهم وأعمالهم المزعومة والمنسوبة إليهم ما ينقض الرسالة والنبوة والتوحيد، بل إن أعمالهم وأقوالهم هذه مما لا يرضى به الشرفاء من بنى الإنسان !

ففى توراتهم وأسفارهم المقدسة وصف رسلهم وأنبيائهم بما يتنزه عنه المهذبون، منذ عرف الإنسان الأخلاق الكريمة حتى اليوم، وأن بعض رسلهم وأنبيائهم بلغ بهم الانحطاط الخلقى حدا لم يصل إليه المجردون من الإنسانية، إلا من كان من بنى الإنسان يعيش بطبيعته البهيمية العجما، وهو افتراء محض على الله ورسله وأنبيائه !

إن اليهود صوروا أنبياءهم ورسلهم أبشع صورة وأقذرها، ليبيحوا لأنفسهم القذارة والسفالة وكل الأخلاق اللئيمة الممقوتة، وإذا كان القدوة قدرا سافلا فلا لوم على المقتدي أن يكون كذلك !

ولا لقاء بين اليهود فى نظريتهم فيما يختص بالرسل والأنبياء وبين المسلمين - كما سيأتى - لأن المسلمين ينزهون الرسل والأنبياء جميعا كل التنزيه عما ألصقوه بهم من تهم وأخلاق ذميمة منكرا !

(١) اليهودية والصهيونية: ٢٩ وما بعدها بتصرف.

وأما العقيدة اليهودية فلم تكن قط عقيدة توحيد إذا اعتمدنا مصادرهم التي تأتي في طليعتها توراتهم وتلمودهم وأسفارهم المقدسة، في حين أن الإسلام يؤكد أن دين موسى توحيد حق، وإيمان بأنه لا إله إلا الله، ونفى لكل شريك.

والعقيدة اليهودية التي تصورها أسفار اليهود المقدسة عندهم عقيدة وثنية، فالإله الذي يعبدونه ليس « الله » الواحد الأحد، بل هو إله قبلى محلى خاص بهم، لا يشركهم فيه سواهم، ولا يرضون أن يشركهم فيه أحد غيرهم !

وهذا الإله الذى يعرفونه بكلمة « يهوه » إله كنعانى ابتدعه الوثنيون، وأخذته اليهود عنهم، وزادوا فى صفاته ما يتفق مع حياتهم وطبيعتهم !

يقول « ول ديورانت » (١) : يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها وجعلوا منه إلها، ويؤكد ذلك أن من بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١م قطعا من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق م) عليها اسم إله كنعانى يسمى « ياه » أو « ياهو » .

وعلى هذا تكون كلمة « يهوه » معروفة قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام .

وفى أسفارهم المقدسة أن إبراهيم عرف « يهوه » بلفظه ومعناه !

وقصة « الخليفة » لدى اليهود منقولة عن « بابل » وكذلك قصة « الطوفان » !

وفكرة « المخلص » نقلها اليهود عن الديانة الفارسية وتمسكوا بها !

ونظر اليهود فى صفات إلههم « يهوه » إلى الديانات الوثنية، وفكرة « خصوصية »

الإله منقولة عن الوثنيات التى سبقت ديانتهم أو عاصرتها !

والمخالفات التى تزدهم بها التوراة والتلمود وكتب اليهود التى يقدسونها لحقيقة التوحيد تثبت أن التوراة الأصلية الصحيحة التى فيها هدى ونور قد تغيرت وحرفت على أيدي اليهود - كما سيأتى - ودخلت فيها الوثنيات من الشرك والتعدد والكفر والإلحاد وكل أنواع الباطل والفساد، وما تذكر من التجسيد وصفات « يهوه » من الحمق والطيش والندم والتوحش والتعطش إلى الدماء البريئة - كما نشاهد الآن فى الأرض المحتلة - والمحابة لعباده إنما هو مذكور فى صفات آلهة بابل وآشور وغيرهما !

(١) مقارنة الأديان : اليهودية : ١٦٠. نقلا عن قصة الحضارة : ٢ : ٣٤٠

وفى الفترات التى كانت دعوة التوحيد الموسوية تعلو على غيرها لم تخل اليهودية من اعتقاد التعدد، فقد كانوا يؤمنون بإلههم «يهوه» مع الاعتراف بألهة الشعوب الأخرى !

«عزير ابن الله» :

وأخذوا بفكرة البنوة لله من المسيحية ومن كرشنا وبوذا وباخوس، فزعم اليهود أن «عزرا» الذى ذكره القرآن باسم «عزير» هو ابن الله !

وصدق الله العظيم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١)

وقد أورد صاحب المنار (٢) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها كذلك تعليقا مفيدا ننقل منه فقرات تفيدنا فى بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالا، قال:

« جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية (طبعة ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية، الذى تفتحت فيه أزهاره، وعبق شذا ورده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفى الأصل عربية أو مركبة الشريعة) لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ ب) فقد كانت نسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحيها. ولولا خطايا بني إسرائيل لا استطاعوا رؤية (المعجزات) كما رأوها فى عهد موسى ١٠٠ هـ وذكر فيها - أنه كتب الشريعة بالحروف الأثورية، وكان يضع علامة على الكلمات التى يشك فيها - وأن مبدأ التاريخ اليهودى يرجع إلى عهده .

وقال الدكتور «جورج بوست» فى قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودى، وكاتب شهير، سكن بابل مدة « ارتحششتا » الطويل البارع، وفى السنة السابعة لملكه أباح لعزرا أن يأخذ عددا وافرا من الشعب إلى أورشليم سنة ٤٥٧ ق م (عزرا ص ٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر .

ثم قال : وفى تقليد اليهودى يشغل عزرا موضعا يقابل بموضع موسى وإيليا، ويقولون: إنه أسس المجمع الكبير، وإنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرية القديمة، وإنه ألف أسفار « الأيام » و « عزرا » و « نحميا » .

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) تفسير المنار: ١٠ : ٣٢٢ وما بعدها، وانظر: فى ظلال القرآن: ٣ : ١٦٣٦.

ثم قال : ولغة سفر « عزرا » من ص ٤ : ٨ - ٦ : ١٩ كلدانية، وكذلك ص ٧ : ١ - ٢٧ وكان الشعب بعد رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية اهـ .
وجملة القول : إن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيزا هذا، حتى أطلق عليه لقب «ابن الله» .

آلهة أخرى:

وعندما نجى الله اليهود على يد موسى عليه السلام، ورأوا معجزاته وما تم على يديه، وكانوا في سيناء، حيث الأمن والدعة والحرية والرزق، طلبوا إلى رسول الله موسى عليه السلام - كما سبق - أن يجعل لهم آلهة، فزجرهم أشد الزجر !

بل ترك اليهود عبادة الله وحده، وعادوا إلى وثنيته، وهم حديثو عهد بمعجزة النجاة، وكفروا بالهداية وبالنجاة وبنعم الله التي لا تحصى، وانقلبوا مشركين بنص توراتهم !
ففى سفر الخروج، وهو من أسفار توراتهم: (١)

« ولما رأى الشعب موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه !.. » .

وفيه أيضا:

« تضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث، ليقتلهم فى الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض، ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك »

وفيه: «فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه !»

هذا هو مفهوم اليهودى من عقيدة التوحيد، وهذا الذى حدث كان والديانة غضة طرية، وعبدوا العجل الذهبى وموسى على مقربة منهم - كما سبق - وجحدوا فضل الله عليهم.

وفى جميع مراحلهم أشركوا بالله، بل كفروا « بيهوه » وأخلصوا غيره.. وعلى سبيل المثال نذكر بعض الحوادث التى تثبت كفر اليهود من كتبهم المقدسة التى لم تقتصر على

(١) سفر الخروج: ٣٢ : ١.

نسبة الشرك والكفر إلى العامة، بل نسبتها إلى رسل كرام يؤمنون برسالتهم، ومنهم سليمان عليه السلام.

فى سفر «الملوك الأول» بالإصحاح الحادى عشر:

«وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى .. فذهب وراء آلهة الصيدونيين ... وهكذا فعل لجميع نساءه الغربيات اللاتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن!»

وفى سفر «الملوك الأول» بالإصحاح الثانى عشر:

«بنى يربعام شكيم فى جبل افرايم وسكن بها .. وعمل عجلى ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أتصعدوا إلى أورشليم، هوذا آلهتك ياإسرائيل!»

وفى سفر «أرميا» الإصحاح الخامس، الفقرة ١٩:

«كما تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم، هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم».

وفى سفر «أرميا» ٧: ١٧ - ١٨:

«أما ترى ماذا يفعلون فى مدن يهوذا، وفى شوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطبا، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكي يغيظونى».

وملكة السموات هذه هى «عشتروت» أو «عشيرا» التى يصفها «غوستاف لوبون» فى كتابه: «اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى» بأنها الآلهة الشهوانية التى كان العبريون يعبدونها فى الأماكن العليا بين الغياض، والتى كانوا يأتون الدعارات تكريما لها!

هذه شواهد من أسفار اليهود المقدسة، ولو أردت الاستشهاد بأكثر مما ذكرت لطلال بنا الحديث وطلال، فأسفارهم مزدحمة بمروقهم عن التوحيد، بل عن عبدة ربهم «يهوه» إلى عبادة آلهة الوثنيين. فتقربوا لهذه الآلهة بقرايين بشرية، إذ أحرقوا أولادهم تقربا إليها!

ولم يقف الكفر والشرك على عامة اليهود، بل تجاوزهم إلى الرسل الكرام عليهم السلام، مثل سليمان، وزعموا فى كتبهم أن هؤلاء الرسل اعترفوا بالبعل إله الكنعانيين، فكانوا يسمون أبناءهم أسماء منسوبة إلى البعل .. وداود عليه السلام سُمى أحد أبنائه «بعليان داغ» كما يذكر «أخبار الأيام الأول» ٨: ٣٤، ٩: ٤٠، ١٤: ٧.

وأبشع من كل هذا ماجاء فى « التلمود » الذى يقده اليهود أكثر من « التوراة » بل « التلمود » - كما سيأتى - هو الكتاب الفريد فى القدسية، ولا يذكر « التوراة » بجانبه شيئاً، فيزعم « التلمود » أن فى « التوراة » أحكاماً لا يعاقب تركها بالموت، أما « التلمود » فإن من يخالف حرفاً واحداً فجزاؤه القتل !

وهبط اليهود بإلههم « يهوه » فى التلمود إلى هوة سحيقة من الذل والهوان، وصيره تابعا ذليلاً للحاخام، ولا أمر « ليهوه » ولا طاعة، بل زعم التلمود أن كلام الحاخام شرع ووحى، لأنه يصبح « يهوه » مع الاحتفاظ للحاخام بتفوقه على « يهوه »، فهو أعظم منه، وإذا اختلف « يهوه » والحاخام فالحق مع الحاخام، بل إن « يهوه » خاضع للحاخام، لأن « يهوه » مجبر على إجراء مايريده الحاخام، وهو مؤتمر بأمره، ومنته بنهيه !

بل بلغ من عظم « التلمود » أن سفر « مجيلا » بالفقرة الواحدة والعشرين يقول: «إن الله يدرس التلمود منتصباً على قدميه » !

ونخرج « من » « التلمود » و« التوراة » وأسفار اليهود المقدسة عندهم بتقرير وإعلان الكفر المقيت، والإلحاد اللئيم، والشر البشع، والتعدد الحقيق !

انحطاط حيوانى:

والعقيدة الدينية التى يعتقدونها اليهود تجعلهم فى حل من كل عقيدة، وتحملهم على فعل ما يستقبحه العقل والضمير، ويستقذره الإنسان، لأنها عقيدة حيوانية، وتعالى الله عز وجل عما يصنعه اليهود، وتعالى عما يشركون !

وعقيدة اليهود الدينية أبشع ما عرف التاريخ البشرى من عقائد، فهى عقيدة الشرك والشقاق والنفاق والاحتكار والقتل والوحشية والأذى !

وفى جميع مراحل عقيدة اليهود لم تكن عقيدة هداية وتهذيب ورشد، ولم تعط العالم قط أى بشرى أو خير أو إحسان، بل أعطته النقيض.. أعطته الشر والأذى، والموت الزؤام والفساد، ولم توح قط بالأخوة الإنسانية، والرحمة والتعاطف والحب.

ولم تكن قط ديانة اليهود رسالة خير وبناء، بل كانت فى جميع مراحلها - باستثناء عهد موسى وهارون، وبعض العهود التى تولى الحكم فى بنى إسرائيل رسل كرام - ديانة هدم وتخريب وإبادة !

ومن المؤسف أن عقيدة اليهود الدينية لا تفهم الخير ولا تدرك معناه، وإذا فهمته فإنما تفهمه على أنه الشر المستطير، الذى لاشر مثله، ولا يكون الخير إلا فى قتل الأبرياء والعجزة والشيوخ والنساء والأطفال، وسلب الأموال، وانتهاك الحرمات، وتمزيق الأعراض، ونشر الفتن والفساد فى الأرض ! كما نرى ونشاهد فى الأرض المحتلة !

ونبصر فى كثير من العقائد وصايا تعد من تراث الإنسانية المشترك: اعمل الخير، أكرم الضيف، أعن المحتاج، ارحم العاجز، لا تسرق، لا تزنى، لا تقتل، لا تشهد بالزور، لا تقرض بربا، لا تغش ..

ولاشك أن هذه الوصايا تعمّر القلوب والدنيا، وتجعل الحياة طيبة كريمة، وعندما تناولها اليهود حولوها إلى شر محض !

وديانة اليهود - كما جاء فى التلمود وفى التوراة وبقية الأسفار المقدسة - تأمر اليهودى بأن يغش غير اليهودى فيقول له التلمود: غش الجيوم « وهم كل أُم الأرض ماعدا اليهود » واسلب أموالهم بالربا الفاحش، فإذا وجدت مالا ضائعا للأجنبى فلا ترده إليه، لأن رده إليه ذنب لا يغفره الله.

وديانتهم تفخر بالخداع والغش والكذب، وتنص على أن الحاخامين الذين هم آلهة عندهم بنص التلمود وأعظم من ربهم المعبود « يهوه » - كما عرفنا - يغشون الأُمى.

وتذكر ما فعله الحاخام الأكبر الرابى « صموئيل »، وهذا نص التلمود مترجما إلى العربية:

« إن الرابى صموئيل كان رأى أن سرقة الأجانب حلال، وقد اشترى هو نفسه من أجنبى آنية من الذهب كان يظنها الأجنبى نحاسا، ودفع له ثمنها أربعة دراهم وهو ثمن بخس، وسرق درهما من البائع ! »

وإذا كان هذا الحاخام الأكبر كذابا وغشاشا ولصا فغيره أشد من باب أولى، وكل اليهود سواء فى الطبيعة القذرة الشريرة !

وإن أشد المجرمين من غير اليهود يعد صالحا، إذا قيس على حاخامى اليهود الذين هم آلهة عند أتباعهم وعبادهم !

وطبيعى أن يكون اليهود جميعا بلا استثناء مجردين من الطبيعة البشرية ! فالفضيلة

والأخلاق الإنسانية الكريمة قيد ثقيل يصد صاحبها عن الآثام والمحرمات والموبقات، ويدفعه إلى فعل الخير والعمل الصالح، واليهودى لا يطبق هذا القيد، ولهذا لا يستطيع أن يتخلق بالأخلاق الكريمة، لأنه مطبوع على التحلل من كل قيد من قيود الأخلاق والفضائل والإنسانية والمروءة!

وديانته تأمره بهذا التحلل، وترى أبشع الجرائم أقدم الفضائل، فالزنا حرام محض فى جميع الشرائع والديانات إلا فى « التلمود » كتاب اليهود المقدس الذى يسمو على توراتهم، فهو - كما سيأتى - ينص على أن الزنا حلال بغير يهودية ! يقول « غوستاف لوبون » فى كتابه « اليهود » : ٥١ :

ليس زنا الأزواج هو الجرم الوحيد الذى تحرمه الشريعة على مزاج بنى إسرائيل الداعر، ففى شريعتهم تعداد لدعارات عنيفة، مع شدة عقوبة من يقترف إحداها، وتثبت هذه الشدة كثرة المخالفات.

وسفاح ذوى القربى: أى الزنا بالأخت، والزنا بالأُم، واللواط، والمساحقة، ومواقعة البهائم، من أكثر الآثام التى كانت شائعة بين الشعب الذى نص « تاسيت » على شبق له، لا يروى غليله.

وأريد لدى بنى إسرائيل - كما عند كل شعب ذى غلظة - خلط أفضع الملاذ بالطقوس المقدسة، ومواقعة الشريعة على هذه الملاذ، فعدت ضروب البغاء تكريماً لعشوت، وعد الانهماك فى السكر على بسط الأزهار، وتحت ظلال شجر الزيتون فى الليالى الرطبية نوعاً من العبادة التى لم تفتأ تمارس آنفاً فى فلسطين، على الرغم من غضب الأنبياء!

وما فى الفصل الثانى عشر من سفر اللاويين من المحظورات، كسفاح ذوى القربى، واللواط، ومواقعة الرجال والنساء للبهائم وما إلى ذلك ... يدل على درجة غلظة الشعب اليهودى!

فهو باسم الديانة يمارس هذه الجرائم المنكرة البشعة، وما جاء التشديد البالغ أقصى درجاته إلا لأن اليهود كانوا مولعين ولعا لا حد له بممارسة هذه الجرائم، يمارسها اليهودى مع اليهودى واليهودية!

والتلمود يبيح لليهودى الفاحشة مع غير اليهودية، كما يحل له كل ما تحرمه الشرائع

وقوانين الأرض !

والعقيدة التى تصنع ذلك، لن تكون عقيدة صالحة، ولن تعطى غير الشر، ولهذا لم يعتنقها غير اليهود، الذين أدركوا مافى عقيدتهم من الكفر المنكر والفساد والآثام والجرائم والموبقات، فجعلوها عقيدة خاصة بهم، كما جعلوا ديانتهم مغلقة على أنفسهم، حتى يفتخروا بأنهم هم الذين يحرمون على غيرهم الدخول فى ديانتهم، كما حرموا على غيرهم إلههم « يهوه » الذى أباح الزنا لبعض الأنبياء، كما عاقب داود على زناه بأن يجعل ابنه - كما سيأتى - يزنى بنساء أبيه، وفى وضح النهار، وأمام بنى إسرائيل !

ولو كانت هذه الموبقة وحدها لا يستبشع الناس عقيدة اليهود، فكيف وقد أضافوا إليها كل مافى الأرض من الموبقات والآثام !

ولا غرابة أن يستبشع الناس ديانة اليهود، وينكروا عليهم البشرية ويحاربوهم منذ القدم، وحتى اليوم وبعده، فعقيدتهم الدينية، وطبيعتهم وأخلاقهم .. كل أولئك يجبر الناس إجباراً، ويدفعهم دفعا شديداً إلى محاربة هذا الشعب الكافر اللئيم، الذى وقف عليه كل مافى الوجود من آثام وجرائم، وشرور وموبقات، كما يدفعهم إلى محاربة عقيدته التى تأمر بالمنكر، وتنهى عن المعروف، وتكفر بالله !

الفصل الثاني

أضواء على التوراة

الأسفار المقدسة - « هدى ونور » -

تحريف وتخريف

الأسفار المقدسة:

والتوراة كلمة عبرانية - كما يقول صاحب المنار^(١) - معناها المراد: الشريعة أو الناموس، وهى فى عرف القرآن: ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام، ليبلغه قومه، لعلهم يهتدون به .

وتطلق عندهم على خمسة أسفار، وهى:

١ - سفر التكوين .

٢ - سفر الخروج .

٣ - سفر التثنية .

٤ - سفر اللاويين .

٥ - سفر العدد .

أما سفر التكوين « أو الخلق »^(٢) فسمى بذلك لأنه يقص خلق السموات والأرض، ويحكى قصة خلق آدم عليه السلام وأكله من الشجرة، ونزوله إلى الأرض، كما يحكى قصة نوح عليه السلام، وقصة الطوفان، وقصة إبراهيم عليه السلام وأولاده، وينتهى هذا السفر بالحديث عن قصة يوسف عليه السلام إلى أن مات .

وأما سفر الخروج فسمى بذلك لأنه يحكى تاريخ بنى إسرائيل فى مصر، وكيف خرجوا منها؟ وكيف عاشوا بعد ذلك؟ كما يحكى قصة التيه وما جرى بينهم وبين موسى عليه السلام .

وأما سفر التثنية فسمى بذلك لأنه يكرر ويعيد التعاليم .. ومعظمه يدور حول الشئون التشريعية والاقتصادية والسياسية الخاصة ببنى إسرائيل .

وأما سفر اللاويين فمعظمه يدور حول شئون العبادات والوصايا والأحكام، والطقوس والأعياد، والنذور، واللاويون هم نسل « لاوى » أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، ونسب هذا السفر إليهم، لأنهم كانوا سدنة الهيكل، وحفظلة الشريعة، ومعظمه يدور حول ما يشرفون عليه من عبادات ومعاملات .

(١) تفسير المنار: ٣: ١٥٥-١٥٦ بتصرف.

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ٨٤ وما بعدها بتصرف .

وأما سفر العدد فمعظمه يدور حول تقسيم بنى إسرائيل، ويبان تعداد أسباطهم وجيوشهم وأموالهم وذكورهم وإناثهم .. وبجانب هذا بعض الأحكام التى تتعلق بالعبادات والمعاملات.

أما الأربعة والثلاثون سفر الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة فى الطول والقصر.. (١) وهى مقدسة أيضا عند اليهود، ويصنفونها فى ثلاثة أبواب، (٢) ويضعون فى الباب الأول اثنى عشر سفرا، وهى: سفر يوشع، والقضاة، وراعوث، وصموئيل الأول، وصموئيل الثانى، والملوك الأول، والملوك الثانى، وأخبار الأيام الأول، وأخبار الأيام الثانى، وعزرا، ونحميا، وأستير.

وتسمى هذه الأسفار الاثنا عشر الأسفار التاريخية.

والباب الثانى يحتوى خمسة أسفار، وهى: سفر أيوب، والمزامير، والأمثال، والجامعة، والأنشيد.

وتسمى الأسفار الشعرية أو أسفار الأنشيد.

ويضعون فى الباب الثالث مابقى من الأسفار، وعدده سبعة عشر سفرا، هى: سفر أشعيا، وأرميا، والمراثى، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوثيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجى، وزكريا، وملاحي.

وهناك سبعة أسفار أخرى تضمها الكنيسة الكاثوليكية إلى التسعة والثلاثين سفرا السابقة، وهى: طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثانى.

وأهمها جميعا مايعرف بالتوراة، وهى خمسة الأسفار الأولى ...

« هدى ونور » :

يعترف الإسلام بالتوراة التى أنزلها الله على موسى، ولايعترف بسواها من أسفار العهد القديم، قال تعالى:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝

(١) انظر: أراجع السابق: ٨٥ ومقارنة الأديان: اليهودية: ٢١٩ ومابعدها.

(٢) اليهودية والصهيونية: ٨٧ — ٨٨ بتصرف .

وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴿٦﴾ .

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ سَخَّطُ طُغْيَانٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوْنَ
النَّاسَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٨﴾ .

فالتوراة - كما أنزلها الله - كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل، (٤) وإنارة
طريقهم إلى الله . وطريقهم فى الحياة .. وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد .. وتحمل شعائر
تعبدية شتى ... وتحمل كذلك شريعة:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ سَخَّطُ طُغْيَانٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾

أنزل الله التوراة، لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب، بما فيها من عقيدة
وعبادات فحسب، ولكن كذلك لتكون هدى ونورا، بما فيها من شريعة تحكم الحياة
الواقعية وفق منهج الله، وتحفظ هذه الحياة فى إطار هذا المنهج ويحكم بها النبيون الذين
أسلموا أنفسهم لله - كما أسلفنا - فليس لهم فى أنفسهم شىء ، إنما هى كلها لله،
وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى فى خصيصة من خصائص الألوهية - وهذا هو
الإسلام فى معناه الأصيل - يحكمون بها للذين هادوا .. فهى شريعتهم الخاصة، نزلت لهم
فى حدودهم هذه، وبصفتهم هذه - كما يحكم بها لهم الربانيون والأنبياء - وهم
قضاتهم وعلمائهم ... وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله، وكلفوا أن
يكونوا عليه شهداء، فيؤدوا له الشهادة فى أنفسهم، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته،
كما يؤدوا له الشهادة فى قومهم بإقامة شريعته بينهم.

وقبل أن ينتهى السياق من الحديث عن التوراة، يلتفت إلى الجماعة المسلمة، ليوحيها
فى شأن الحكم بكتاب الله عامة، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم
وحريهم وكفاحهم، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف،

(٢) الأحقاف: ١٢ .

(١) آل عمران: ٢ - ٣ .

(٤) فى ظلال القرآن: ٢ : ٨٩٦ بتصرف .

(٣) المائدة: ٤٤ .

وجزاء نكوله أو مخالفته:

﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِنِّي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

ولقد علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من بعض الناس، ولن تقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام !

ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث.. ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خاصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله !

وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت.. ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقى على مصالحهم الظالمة !

وستواجهه معارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال الداعر ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها، وسيأخذهم بالعقوبة عليها !

وستواجهه معارضات شتى غير هذه وتلك، ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض !

علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة، وأن يصمدوا لها، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال.. فهو يناديهم:

﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونَ ﴾

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله.. سواء من الناس أو أولئك الطغاة البغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله،.. ويرفضون الإقرار - من ثم - بتفرد الله سبحانه بالألوهية... أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه... أو تلك الجموع المضللة المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها.. لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضى قدما في تحكيم شريعة الله في الحياة.. فالله وحده هو الذى يستحق أن يخشوه، والخشية لا تكون إلا لله.

كذلك علم الله سبحانه أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا، وهم يجدون أصحاب السلطان، وأصحاب المال، وأصحاب الشهوات، لا يريدون حكم الله فيتملقون شهوات هؤلاء جميعا، طمعا في عرض الحياة الدنيا، كما يقع من المحترفين للدين في كل جيل وفي كل قبيل، وكما كان ذلك واقعا في علماء بنى إسرائيل، سواء بسواء .. فناداهم الله:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

وذلك لقاء السكوت، أو لقاء التحريف، أو لقاء الفتاوى المدخولة !

وكل ثمن هو في حقيقته قليل ... ولو كان ملك الحياة الدنيا .. فكيف وهو لا يزيد عن أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة يباع بها الدين، وتشتري بها جهنم عن يقين؟!!

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن !

وليس أبشع من تفریط المستحفظ !

وليس أخس من تدليس المستشهد !

والذين يحترفون الدين يخونون ويفرطون ويدلسون، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، لموافاة أهواء ذوى السلطان على حساب كتاب الله !

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

بهذا الحسم الصارم الجازم .. وبهذا التصميم الذى تحمله « من » الشرطية وجملة الجواب .. بحيث يخرج من حدود الملاعبة والزمان والمكان، وينطلق حكما عاما، فى أى جيل، ومن أى قبيل !

إن المماحكة فى هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعنى إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول فى مثل هذا الحكم لا يعنى إلا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه !

يروى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ:

«ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟»

فقالوا: نفصّحهم ويُجلّدون . قال عبدُ الله بن سلام: كذبتم. إن فيها الرجم، فأَتُوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك . فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدقَ يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِمَا، فرأيت الرجل يحنّ على المرأة يقيها الحجارة» (١)

ويروى مسلم عن البراء بن عازب قال: مرَّ على النبي ﷺ يهوديٍّ مُحَمَّمًا (٢) مجلودا. فدعاهم ﷺ فقال:

«هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»

قالوا: نعم. فدعا رجلا من علمائهم . فقال:

«أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»

قال : لا. ولولا أنك تشدّتنى بهذا لم أخبرك. نجده الرجم . ولكنه كثر في أشرفنا فكنّا، إذا أخذنا الشريف تركناه. وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع. فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ :

«اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»

فأمر به فرجم. فأنزل الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا مَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾

إلى قوله :

﴿إِنْ أُولَئِكَ هَذَا خُذُوهُ﴾ (٣)

(١) البخاري: ٨٦ - الحدود (٦٨٤١)، ومسلم: ٢٩ - الحدود ٢٦ (١٦٩٩)، ومالك: ٤١ - الحدود (١)،
والترمذی (١٤٣٦)، وأبو داود (٤٤٤٦، ٤٤٤٩) والشافعي في الرسالة (٦٩٢) تحقيق أحمد محمد شاكر.
(٢) مُحَمَّمًا: أى مسود الوجه، من الحممة: الفحمة .
(٣) المائدة: ٤١ .

يقول: اتتوا محمدا ﷺ . فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١).

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣).

في الكفار كلها. (٤)

ويعود السياق القرآنى لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربابيون والأحبار للذين هادوا، بما است حفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء:

﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَقُصَّ بِالْأَلْغَيْنِ وَالْأُنْثَىٰ الْأُفَىٰ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥).

ويعضى السياق القرآنى فى بيان اضطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة:

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مَصَدَّقًا لِّأَيُّنَ يَدِيهِ مِنَ التَّورَةِ وَآيَةً الْإِنْجِيلِ فِيهِ
هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّأَيُّنَ يَدِيهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَلِيَحْكُمَ
أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴿٦٧﴾

ويصل السياق القرآنى إلى الرسالة الأخيرة، وإلى الشريعة الأخيرة.. (٧) إنها الرسالة التى جاءت تعرض الإسلام فى صورته النهائية الأخيرة، ليكون للبشرية كلها، ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعا، ولتهيمن على كل ما كان قبلها، وتكون هى المرجع النهائى ولتقيم منهج الله لحياة البشرية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... المنهج الذى تقوم عليه الحياة فى شتى شعبها ونشاطها.. والشريعة التى تعيش الإنسانية الحياة فى إطارها. وتدور حول محورها، وتستمد منها تصورها الاعتقادى، ونظامها الاجتماعى، وآداب سلوكها الفردى والجماعى..

(٣) المائدة: ٤٧.

(٢) المائدة: ٤٥.

(١) المائدة: ٤٤.

(٤) مسلم: ٢٩ - الحدود ٢٨ (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٢٤) عون المعبود. (٥) سورة المائدة: آية ٤٥.

(٧) فى ظلال القرآن: ٢: ٩٠١ بتصرف.

(٦) المائدة: ٤٦ - ٤٧.

وقد جاءت كذلك ليحكم بها، لا لتعرف وتدرس، وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر، والرسائل والشهادات، والنظم العلمية وكفى !

وقد جاءت لتتبع بكل دقة، ولا يترك شيء منها ويستبدل به حكم آخر في صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۗ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَاحِدٌهُمْ أَنْ يِفْضُلُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ النَّاسِ لَفَسَقُوا ۚ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِأَهْلِيَّةٍ يَنْعُونَ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۖ ﴾ (١).

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير، وهذا الحسم في التقرير، وهذا الاحتياط البالغ لكل ما يهيجس في الخاطر من مبررات لتترك شيء ولو قليل من هذه الشريعة في بعض الملابس والظروف .

وهذه الآيات - كما جاء في المنار - (٢) تنمة السياق .. حيث بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة، ثم الإنجيل .. وما أودع فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من إقامتهما، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما. فناسب بعد ذلك أن يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، ومكانه من الكتب التي قبله، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية .. فتلك مقدمات ووسيلة، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾

أى وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهي عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد .. هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص « التوراة » وعن كتاب عيسى باسمه الخاص « الإنجيل » .. وقوله « بالحق » إلخ، معناه متلبسا بالحق مؤيدا به، مشتملا عليه مقرر له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقا لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية

(٢) تفسير المنار: ٦: ٤١٠ بتصرف .

(١) المائدة: ٤٨ - ٥٠ .

كالتوراة والإنجيل، أى ناطقا بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم.

وأما قوله « ومهيمننا عليه » أى على جنس الكتاب الإلهي... فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد، بما بينه من حقيقة حالها، فى أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقى منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال « ومهيمننا عليه » يعنى أميننا عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب. ^(١) وفى رواية عنه: مؤتمنا عليه. وفى رواية عن قتادة: أميننا وشاهدا على الكتب التى خلت قبله:

﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ فيما كان من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين.. ولكنه ليس خاصا بهذا السبب، بل هو عام.. وإلى آخر الزمان..

لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين. ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين. ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شىء فيه أو تبديله، ولا لترك شىء من حكمه إلى حكم آخر.

وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعا. وعلم الله حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا. وأنه يسع حياة الناس جميعا، إلى يوم الدين.

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شىء مما أنزل الله، واتباع الأهواء... وأن هواجس قد تتسرب فى ضرورة الحكم بما أنزل الله بلا عدول عن شىء فيه، فى بعض الملابس والظروف، فحذر الله نبيه ﷺ فى هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين، ومن فتنهم له عن بعض ما أنزل الله إليه..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية فى تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة فى بلد واحد. ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة، والميل إلى التساهل فى الأمور الطفيفة، أو التى يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

(١) تفسير الطبرى: ٦: ٢٦٦ - ٢٦٧.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءِ آتَاكُم فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس وغيره (١) فى قوله « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » سبيلا وسنة، وقوله « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم » يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجا غير شرائع الأمم الأخر، ومنهاجهم فكنتم تكونون أمة واحدة، لاتفعل شرائعكم ولا يختلف منهاجكم، ولكنه تعالى ذكره يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصي، والعامل بما أمره فى الكتاب الذى أنزله إلى نبيه ﷺ من المخالف. والابتلاء: هو الاختبار، وقد ثبت ذلك بشواهد. وقوله « فيما آتاكم » يعنى فيما أنزل عليكم من الكتب، وروى ابن جرير عن ابن جريج: قال عبد الله بن كثير: لا أعلمه إلا قال: ليلوكم فيما آتاكم من الكتب.

فإن قال قائل: وكيف قال: « ليلوكم فيما آتاكم » ومن المخاطب بذلك، وقد ذكرت أن المعنى: « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » لكل نبي من الأنبياء الذين مضوا قبله، وأممهم الذين قبل نبينا ﷺ، والمخاطب النبي وحده؟

قيل: إن الخطاب وإن كان لنبينا ﷺ، فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم، ولكن العرب من شأنها إذا خاطبت إنسانا وضمت إليه غائبا، فأرادت الخبر عنه تغلب المخاطب، فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب، فلذلك قال تعالى ذكره:

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

بذلك أغلق الحق مداخل الشيطان كلها، وبخاصة ما يبدو منها تأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف، بالتساهل فى شىء من شريعة الله، فى مقابل إرضاء الجميع! أو فى مقابل ما يسمونه وحدة الصفوف! أو فى مقابل ما أطلق عليه فى عصرنا مجمع الكنيست والكنيسة والمسجد! أو مؤتمر الأديان!

إن شريعة الله أبقى وأعلى من أن يضحى بجزء منها فى مقابل شىء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا، ولكل منهم استعداد، ولكل منهم مشرب، ولكل منهم منهج، ولكل منهم طريق، ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين. وقد عرض الله عليهم

(١) المرجع السابق: ٢٧١-٢٧٢ بتصرف.

الهدى، وتركهم يستبقون. وجعل هذا ابتلاء لهم، يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون.

وإنها لتعلة باطلة إذن، ومحاولة فاشلة، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله، أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها. فالعدول أو التعديل فى شريعة الله لا يعنى شيئاً إلا الفساد فى الأرض، وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم، وإلا انتقاء العدالة فى حياة البشر، وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض، واتخاذ بعضهم لبعض أرباباً من دون الله ... وهو شر عظيم وفساد عظيم .. لا يجوز ارتكابه فى محاولة عقيمة لا تكون، لأنها غير ما قدره الله فى طبيعة البشر، ولأنها مضادة للحكمة التى من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والاتجاهات والمشارب ... وهو خالق الخلق وصاحب الأمر الأول فىهم والأخير .. وإليه المرجع والمصير ...

إن محاولة التساهل فى شىء من شريعة الله، لمثل هذا أو ذاك محاولة سخيفة، وخلق من أخلاق يهود!

وهنا يبدو ترابط الآيات - كما سبق - ويبدو تأكيد هذه الحقيقة فى قوله:

﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة، ويزيدها وضوحاً:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا تَنصُرُ بِهِ أَهْلُ الْمِلَّةِ الْكَافَّةِ ﴾

وإذا كان النص السابق قد يعنى النهى عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم فإن هذا النص يحذره من فتنهم له عن بعض ما أنزل الله .. والتحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته .. فهى فتنة يجب أن تحذر .. والأمر فى هذا المجال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً، أو أن يكون اتباعاً للهوى وفتنة يحذر الله منها ..

ثم يستمر السياق القرآنى فى تتبع الهواجس والخواطر، فيهن على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمسك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام ديناً، أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله، كما فعل اليهود:

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بَعْضَ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

فإن تولوا فلا عليك منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمسك الكامل بحكم الله وشريعته. ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك أو يحولك عن موقفك.. فإنهم إنما يتولون ويعرضون، لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم. فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض: لا يصيبك أنت ولا شريعة الله ودينه، ولا الصف المسلم المستمسك بدينه.. ثم إنها طبيعة البشر:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

فهم يخرجون وينحرفون، لأنهم هكذا، ولا حيلة لك في هذا الأمر، ولا ذنب للشرعية! ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق!

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة، ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة، لغرض من الأغراض، في ظرف من الظروف..

ثم يفهم على مفرق الطريق.. فإما حكم الله، كما يأمر الله، وإما حكم الجاهلية، كما فعل اليهود تماما! ولا وسط بين الطرفين ولا بديل!

حكم الله يقوم في الأرض، وشرعية الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشرعية الهوى، ومنهج العبودية - كما فعل اليهود تماما - فأيهما يريدون؟

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية - كما يصفها الحق ويحددها القرآن - تتمثل في هذا الخلق الذي هو - كما عرفنا - طابع يهود.. حكم البشر للبشر.. ومن ثم فالجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية! (١)

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية، وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله:

(١) انظر: جاهلية القرن العشرين: ٧ وما بعدها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وأجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟

ومن ذا الذى يجروء على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض ؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بمصالح الناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه وهو ينزل شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان سبحانه يجهل أن أحوالا ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها فى شريعته، لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان !؟

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة - كما فعل اليهود - ويستبدل شريعة الجاهلية - كما استبدلوا - ويجعل هواه فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟ ما الذى يستطيع أن يقوله؟

إنه مفرق الطريق .. ولا فائدة فى المماحكة عنده ولا الجدل ...

تحريف وتخريف:

وذكر القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا أن التوراة حرفت وغيّرت، وأن اليهود حرفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظا مما ذكروا به، وأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب فأضاعوه:

* أَفَطَمُّونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنحَرُّونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ أَقْبَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَلَإِذَا خَلَا بِضُغْمُهُ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ يَمِينًا فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ لِحَابِئَهُمْ فِيهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفْلَا تَعْلَمُونَ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَنَ أَنْ يَكُفَرُوا بِهِ وَلَإِنْ قِيلَ لَهُمْ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٧٨﴾ قِيلَ لِلَّذِينَ يَكُفَرُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّاهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾

وذلك فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل، بعد صورة الجفاف والقسوة والجذب التى صور بها قلوبهم فى الآيات من قبل:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَوْفِيَخْرُجُ مِنْهُ أَلْأَوَّانُّ وَمِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

إنها صورة الجفاف والقسوة والجذب.. صورة الحجارة الصلدة التي لاتنض منها قطرة، (٢) ولا يلين لها ملمس، ولا تنبض فيها حياة!

وهي صورة توحى باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الفاسدة، الخاوية الجامدة!

والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجذب وأقسى.. هي حجارة لهم بها سابق عهد.. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا، ورأوا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم! ورأوا ورأوا.. ولكن قلوب اليهود، هي قلوب اليهود، لاتلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى.. إنها قلوب قاسية دائما، جاسية دائما، فاسدة دائما، مجذبة كافرة! ومن ثم هذا التهديد:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

بهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع اليهود في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة، والكيد والدس، والقسوة والجذب، والتمرد والفسوق، مما يطول فيه الحديث..

وفي ظل هذا التصوير، وهذا الإيحاء، يلتفت السياق إلى المؤمنين، الذين يطمعون في هداية بنى إسرائيل، ويحاولون أن يثبتوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور.. يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحى باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الطمع:

﴿أَفَلَمْ يَنْتَبَهُوا أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكَرِّ وَقَدْ كَانَ رِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْجِرُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ألا إنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء.. فللايمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر.. إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ للأضواء، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلى الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء، وبما فيها من حساسية وتخرج وتقوى.. هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله.. تحرفه عن علم وإصرار.. فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة، تتخرج من هذا التحريف وذلك الالتواء.

(٢) في ظلال القرآن: ١: ٨٤ بتصرف.

(١) البقرة: ٧٤.

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم فى كتابهم، هم الأحرار والربانيون، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى فى التوراة، ثم يحرفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات البعيدة التى تخرج به عن دائرته. لا عن جهل بحقيقة مواضعه، ولكن عن تعمد للتحريف، وعلم بهذا التحريف ! يدفعهم الهوى، وتقودهم الضغينة، ويحدوهم الغرض المريض ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذى جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ، وقد انحرفوا عن الحق الذى جاء به نبيهم موسى عليه السلام، ومن باب أولى - وهذا خراب ذمهم، وهذا إصرارهم على الباطل، وهم يعلمون بطلانه - أن يعارضوا دعوة الإسلام .. ويروغوا منها، ويختلقوا عليها الأكاذيب !

﴿وَلِذَا قَالُوا آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَلِذَا خَلَا بِعِضِهمْ إِلَى بَعْضِهمْ قَالُوا اتَّخَذُواهمْ بَنِينَ فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْكمْ لِيُحَاجَّكمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وهم يضيفون إلى خراب الذمة، وكتمان الحق، وتحريف الكلم عن مواضعه .. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة ؟

وقد كان بعضهم يقول للذين آمنوا: آمنا .. أى آمنا بأن محمدا مرسل، بحكم ما عندهم فى التوراة من البشارة به، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم. وهو معنى قوله:

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١)

ولكن : « إذا خلا بعضهم إلى بعض » عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد ﷺ، ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم، فقال بعضهم لبعض : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » فتكون لهم الحجة عليكم ؟ ... وهنا تدر كهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفات الله وحقيقة علمه، فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ! .. وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض فى هذا : « أفلا تعقلون ؟ » .. فى للسخرية من العقل والتعقل الذى يتحدثون عنه مثل هذا الحديث !

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضى فى استعراض ما يقولون وما يفعلون:

(١) البقرة: ٨٩

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بنى إسرائيل : إنهم فريقان :

فريق أمى جاهل لا يدري شيئا من كتابهم الذى نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهاما وظنونا، وإلا أمانى فى النجاة من العذاب، بما أنهم - كما يزعمون - شعب الله المختار، الذى غفر له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام !

وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزور على كتاب الله، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة، ويكتم منه ما يشاء، ويبدى منه ما يشاء، ويكتب كلاما من عند نفسه يذيعه فى الناس باسم أنه من كتاب الله :

﴿وَمِنْهُمْ أَقْصُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا مَا كَانُوا يَكُونُونَ ۖ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۖ قَوْلٌ
لَّذِينَ يَكْنُبُونَ الْكِتَابَ بَأْيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
قَوْلٌ لَهُمْ تَمَّا كَتَبْتَ بَأْيْدِهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ تَمَّا يَكْفِيُونَ﴾

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء أن يستجيبوا للحق، وأن يستقيموا على الهدى، وأن يتخرجوا من تحريف ما يقف فى طريقهم من نصوص كتابهم نفسه ؟

إن هؤلاء لامطمع فى أن يؤمنوا للمسلمين، وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم، الويل والهلاك مما كتبت أيديهم من تزوير على الله .. والويل والهلاك مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق !

﴿فَمَا تَقْضِيهِمْ مِّمَّا قُضِيَ لَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ
وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۖ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ۖ﴾ (١).

وصدق الله وعده (٢) فهذه سمات يهود التى لاتفارقهم ... لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية، وقسوة تبدو فى ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفى تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا - مكرًا - إبداء اللين فى القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعمومة فى الملمس عند الكيد والوقعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضج ويشى بجفاف القلوب والأفئدة !

وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه !

(٢) المرجع السابق : ٢ : ٨٥٩ بتصرف .

(١) المائدة : ١٣ .

تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبرزها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والهدف الخبيث! ونسيان وإهمال لأوامر شريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الحق الطاهر القويم النظيف العفيف:

﴿وَلَا نَزَالَ تَطْلُعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة، فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ، وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة، بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة، ثم في الجزيرة كلها، وماتزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي - كما سبق - هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه!

ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثعالب وذئابا، تضرر المكر والخيانة، ولا تنى تمكر وتغدر! إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك، وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يراعون فيهم إلا ولاذمة! أكثرهم كذلك.. كما وصفهم الله سبحانه في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم!

﴿وَلَا نَزَالَ تَطْلُعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة.. يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة.. «خائنة».. لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقى ظلالها وحدها على القوم.. فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة!

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق.. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها. وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله. ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ماتزال تتخذ منه ترانيم وتعاويد، أصابها ما أصابها!

ولقد قص القرآن عليها ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرود وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد... فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية، وتركها ذيلا في القافلة! حتى تثوب إلى ربها، وتؤوب إلى رشدها، وحتى تستمسك بعهدا، لأنها مطالبة بالوفاء بعقدها. فيفى الله لها بوعده من التمكين فى الأرض، ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس..

وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة.. وعد الله لا يخلف الله وعده..

ولقد كان توجيه الله عز وجل لنبيه في ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

والعفو عن قبائحهم إحسان..

والصفح عن خيانتهم إحسان..

وبعد ذلك جاء الوقت الذى لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه ﷺ أن يجليهم عن المدينة، وأن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها - كما سيأتى - وقد كان..

ولقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبي ليس منهم.. نبي من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعلمون، لأنهم هم أهل الكتاب، وهؤلاء أميون! فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة، الشاملة للبشر أجمعين، والرحمة المهداة، والنعمة المسداة للعالمين. ومن ثم كان

هذا النداء الإلهى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْلَوْنَ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام. مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويسجل عليهم

شهادته سبحانه بأن هذا النبي الأمي هو رسوله إليهم، كما أنه رسول إلى الأميين، وإلى العالمين، فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولاً، ولا مجال للدعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانياً :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾

فهو رسول الله إليكم، ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معكم .. وقد أخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة، كرجم الزاني - كما أسلفنا - وتحريم الربا كافة، وخبر بعثة النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم .. كما أنه ﷺ يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه، مما لم يرد به شرعه .. ويبين لهم طبيعة ماجاء به هذا الرسول، ووظيفته في الحياة البشرية، وما قدر الله من أثره في حياة الناس .

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب .. القرآن .. وعلى طبيعة هذا المنهج .. الإسلام .. من أنه « نور » .

إنها حقيقة يجدها المؤمن في قلبه وفي كيانه وفي حياته وفي رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص .. يجدها المؤمن بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان في قلبه .. « نور » .. نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف .. ويشرق به كل شيء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم .

ثقله الطين في كيانه، وظلمة التراب، وكثافة اللحم والدم، وعرامة الشهرة والنزوة .. كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى .. تخف الثقل، وتشرق الظلمة، وترق الكثافة، وترف العرامة ..

واللبس والغبش في الرؤية، والتأرجح والتردد في الخطوة، والحيرة والشروء في الاتجاه، والطريق البهيم الذي لا معالم فيه .. كل أولئك يشرق ويضيء ويتجلى .. يتضح الهدف، ويستقيم الطريق إليه، وتستقيم النفس على الطريق ..

﴿نور وكتاب مبين﴾ وصفان للشيء الواحد .. لهذا الذي جاء به الرسول الكريم ..

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

لقد رضى الله الإسلام دينا .. وهو يهدى من اتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما
رضيه الله .. يهديه « سبل السلام »

وما أدق هذا التعبير وأصدق، إنه « السلام » هو ما يسكبه هذا الدين فى الحياة كلها ...
سلام الفرد، و سلام الجماعة، و سلام العالم .. سلام الضمير، و سلام العقل، و سلام
الجوارح .. سلام البيت والأسرة، و سلام المجتمع والأمة، و سلام البشر والإنسانية .. السلام
مع الحياة و السلام مع الكون، و السلام مع الله رب الكون و الحياة .. السلام الذى لا تجده
البشرية - ولم تجده يوما - إلا فى هذا الدين، وإلا فى منهجه ونظامه و شريعته، و مجتمعه
الذى يقوم على عقيدته و شريعته.

حقا، إن الله يهدى بهذا الدين الذى رضىه، من يتبع رضوان الله « سبل السلام » سبل
السلام كلها فى هذه الجوانب جميعها .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق
سبل الحرب فى الجاهلية القديمة أو الحديثة .. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من
ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية فى أعماق الضمير، و حرب القلق الناشئ من
شرائع الجاهلية و أنظمتها و تخطيطها فى أوضاع الحياة .

و قد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم فى الجاهلية معنى هذا
السلام، إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ، و يلتذون هذا المذاق المريح ..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة، و الجاهلية من حولنا و من بيننا تذيب
البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب فى الضمائر و المجتمعات قرونا بعد قرون !

ما أحوجنا نحن الذين عشنا فى هذا السلام فترة من تاريخنا ، ثم خرجنا من السلام
إلى الحرب التى تحطم أرواحنا و قلوبنا، و تحطم أخلاقنا و سلوكنا، و تحطم مجتمعاتنا
و شعوبنا .. بينما تملك الدخول فى السلم التى منحها الله لنا، حين نتبع رضوانه و نرضى
لأنفسنا ما رضىه الله لنا !

إننا نعانى من ويلات الجاهلية، و الإسلام منا قريب، و نعانى من حرب الجاهلية و سلام
الإسلام فى متناول أيدينا لو نشاء .. فأية صفقة خاسرة هذه التى نستبدل فيها الذى هو أدنى
بالذى هو خير ؟! و نشترى فيها الضلالة بالهدى ؟! و نؤثر فيها الحرب على السلام ؟!

إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة فى شتى الصور والألوان.. ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا، وقبل أن نفىء إلى ظلال السلام، حين نفىء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام ..

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾

والجاهلية كلها ظلمات.. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات.. وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات فى التيه .. وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجنب الآمن المأنوس .. وظلمة اضطراب القيم وتدخل الأحكام والقيم والموازن..

والنور هو النور.. هو ذلك النور الذى تحدثنا عنه آنفا فى الضمير وفى العقل وفى الكيان وفى الحياة وفى كل الأمور ..

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التى تحكمها .. مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التى تصرفه .. مستقيم إلى الله لا يلتوى ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات ..

إن الله الذى خلق الإنسان وفطرته، وخلق الكون ونواميسه، هو الذى وضع للإنسان هذا المنهج، وهو الذى رضى للمؤمنين هذا الدين . فطبيعى أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم .. حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجاهل الفانين !
وصدق الله العظيم. الغنى عن العالمين. الذى لا يناله من هدهم أو ضلالهم شئ، ولكنه بهم رحيم !

ذلك هو الصراط المستقيم. فأما اليهود فهم اليهود، نقضوا ميثاقهم مع الله، وغيروا وبدلوا فى التوراة - كما أسلفنا - ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفا لثيما ماكرا عنيدا، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه ، فباءوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى .

يقول الأستاذ أحمد عطار: (١) وعندما نزل القرآن الكريم مشيرا إلى مأصاب التوراة

(١) اليهودية والصهيونية: ٨٨ بتصرف .

من عبث، تصدى له من كفروا برسالة محمد عليه صلوات الله وسلامه، وما يزال من أهل الكتاب من يفترون على القرآن لأنه ذكر كتبهم بما يتفق مع حقائق العلم والتاريخ التي أثبتها علماء منهم .. وتلك من معجزات كتاب الله ..

وأشار أكبر الباحثين فى كتب العهد القديم والعهد الجديد إلى ما يؤيد القرآن كل التأيد، فقد أبان هؤلاء الباحثون فى العصور الأخيرة - بخاصة - أساليب أسفارهما ولغتهما وبلدانيتهما وكل ما يتصل بهما من قريب أو بعيد، وما فيهما من نظريات كونية، وحوادث تاريخية، ومعاملات وأحكام، وعقائد وتشريعات مختلفة، وما فيهما من تناقض أوضحه بعضهم، وأوله آخرون احترما لقدسيتهما، ووصفوا بيئاتهما وحياة الشعوب الاجتماعية والدينية والتجارية والسياسية والتاريخية والجغرافية .

ويبحث الباحثين الذين تحروا فيها الدقة والاستيعاب، كشفت لهم عن حقائق تلتقى مع القرآن فيما وصف به تلك الكتب .. وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر وهذا القرن قبل هذه التواريخ .

وهذه الدراسات والبحوث التى هى ثمرة تطور العقل والعلم وتقدم وسائلهما تراث تسلمه ورثة عن ورثة، حتى انتهى إلى العصور الأخيرة، فأضافت إليه ما أرباه، وهو ما لا يتفق لفرد أن يحيط به مهما كانت عبقرية .

فمحمد رسول الله حقاً وخاتم النبيين صدقاً، ومع هذه المكانة لا يعلم الغيب، لأن ذلك من علم الله وحده، فكيف تسنى له أن يعلم علم الأولين والآخرين، علوم الماضى وأحداثه، تضاف إليها أحداث المستقبل وكشوفه التى تؤيد ما جاء فى القرآن ؟

إن كان كل هذا من عبقرية فهو أعظم من هؤلاء أجمعين، وبذلك يتم له الامتياز على البشر جميعاً، وفيه من صفات الله ما لا يدعيه هو نفسه، بل ينفيه كما ينفيه المؤمنون على مر الأيام، تلك هى صفة علم الغيب، فما أدراه أن كشوفاً ستم بعد أيامه بعصور مديدة ستؤيد ما أجمله القرآن ويشير إليه فى إيجاز واضح مبين ؟

إنهم لم يرضوا له أن يكون رسولا نبيا، ولكنهم من الجهة الأخرى وصفوه بما هو خاص بالذات الإلهية من الصفات مما لا يرضاه هو نفسه .

إن الله وحده علام الغيوب ، فما فى كتابه من ذكر وإشارات لما تؤيده الكشوف إن هو إلا علم علام الغيوب وحده، أوحى به إلى محمد رسوله فأداه كما تلقاه، وبقي

محفوظا بنصه لا مبدل لكلماته .

والباحثون من غير المسلمين انتهبوا بعد دراسات إلى أن فى التوراة تحريفاً، وإلى أن مايسمى هذا الاسم ليس إلا من تأليف بشر ، والأسفار الخمسة والأسفار الأخرى التى يتم بها العهد القديم تتفاوت أسلوباً وأفكاراً ومعلومات، مما يقتضى تعدد الكتاب والمنشئين، وإن المؤرخ اليهودى الشهير «سيمون دبنوف» أعظم المؤرخين اليهود المحدثين يذكر فى ثقة: أن فى الكتاب المقدس فصولاً كثيرة مأخوذة من الثقافة البابلية، كما يظهر من المقارنة بين الكتابة المسمارية وما ورد فى التوراة .

ويثبت التحريف ما فى هذه الأسفار من نصوص لا تتفق مع التنزيل ، ولا مع التوحيد وعصمة الرسل ونزاهة الأنبياء - وصفات الله وأسمائه - كما سيأتى وفيه من التناقض ما يعترف به غلاة من يؤمنون بالتوراة، وهناك اختلاف بين نسخ التوراة المعتمدة ، فى كتاب «ميزان الحق» «للدكتور فندر» وهو من أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل - قوله: (١) «كتب بعض المصنفين المسلمين جدولاً طويلاً من المتناقضات الواردة فى الكتاب المقدس، وزعم أنها متناقضات حقيقية، وهى متناقضات ظاهرية فقط» وقال: «وقد وفق بين كثير منها العلماء المحققون، والتى لم يهتدوا إلى التوفيق بينها فصعوبتها قائمة على عدم معرفة كل ظروفها» .

ويقول: «يوجد فى التوراة ما يشبه التناقض فى أخبار الوقائع والمسائل التى لا أساس لها بالجوهر، وهو فى الحقيقة ليس بتناقض، فوجود شىء من هذا القبيل فى أسفار التوراة مع سكوت اليهود عنه وعدم تجاسرهم على تسويته لدليل قوى على تمسكهم بالمتون الأصلية» .

والتناقض الذى وقع فيه هذا القسيس الدكتور نفسه واضح من عباراته، فهو يعترف أنها «متناقضات ظاهرية فقط»، ومع ذلك يعترف بأن العلماء المحققين لم يهتدوا إلى التوفيق بينها، للصعوبة القائمة على عدم معرفة ظروفها، وينفى التناقض بقوله «وهو بالحقيقة ليس بتناقض» ثم يثبت أن وجود شىء من التناقض دليل على أمانة اليهود، لأنهم لم يجسروا على تسويته .

ويقول (٢): «لا يوجد فرق إلا فى أعمار بعض الآباء الأولين المذكورين فى إصحاح: ١٠، ٥ من سفر التكوين» ويعتذر بأنه خلاف لا يمس جوهر الكتاب فى شىء .

(١) المرجع السابق: ١١٨ .

(٢) ميزان الحق: ١٠٢ .

ولكن هذا الفرق فى الأعمار بين نسخ التوراة ينسب إلى الله الغلط الذى تنزه عنه، فالنسخة العبرية تذكر أن مقدار الزمان من خلق آدم إلى الطوفان ١٦٥٦ سنة، والنسخة اليونانية المعروفة بالسبعينية تذكر أنه ٢٢٦٢ سنة، والنسخة السامرية تقول: إنه ١٣٠٧ سنة، فأياها الحق المنزل من الله؟!

وهذا الاختلاف يلد اختلافا سواه، فالنسخ الثلاث متفقات على أن عمر آدم ٩٣٠ سنة، وعمر نوح عند الطوفان ٦٠٠ سنة، فعلى ما فى النسخة السامرية يكون نوح مولودا فى زمن آدم، وأن كليهما أدرك من عمر الآخر ٢٢٣ سنة، وهو غير واقع باتفاق جميع مؤرخى العالم، وما فى العبرية واليونانية ينقض هذا الزعم، وفى العبرية: أن آدم مات قبل نوح بمائة وست وعشرين سنة، واليونانية: أن موت آدم كان قبل ولادة نوح باثنتين وثلاثين وسبعمائة سنة.

ومن ألوان الاختلاف بين النسخ فى مسألة الأعمار ما يعد من الإفك، وفى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر أخبار الأيام الثانى أن «يهورام» تولى الملك وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وملك ثمان سنين، ومات غير مأسوف عليه، وفى الإصحاح الذى يليه: أن ابنه الأصغر «أخزيا» ملك بعده، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة!

فكيف يصح فى الأذهان أن الابن أكبر من أبيه بستين؟ أيصح أن ينسب هذا إلى الله العليم الخبير فى كتاب يدعى هؤلاء أنه منه سبحانه وتعالى؟!

وجاء فى سفر التثنية بخصوص وفاة موسى عليه السلام نص يقول: «فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب، ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا». (١)

ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى عليه السلام.

ويتحدث الدكتور على عبد الواحد وافى عن الأزمنة التى كتبت فيها الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام فيقول: (٢)

« هذا ، وأهم أسفار العهد القديم هى أسفار - التكوين - والخروج - والثنية - واللاويين - والعدد - التى ينسبها اليهود إلى موسى عليه السلام، ويعتقدون أنها بوحي من الله ، وأنها تتضمن التوراة، ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ٨٧ بتصرف.

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام: ١٦ بتصرف، ط. نهضة مصر.

والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريح، والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير، وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد أُلِّفَا حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد أُلِّفَ فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفرى العدد واللاويين قد أُلِّفَا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .. وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فى هذه الأسفار عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل ... فهى إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام .

ويتحدث صاحب قصة الحضارة عما يشيع فى الأسفار من عبارات غرامية عجيبة فيقول: « وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين، فقد تكون مجموعة من الأغاني البابلية الأصل .. وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين، ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى .. ولسنا ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغاني من عواطف شهوانية، فأجازوا وضعها بين أقوال « أشعيا » و « أرميا » ؟! (١) »

وبهذا يتبين أن التوراة الحالية - فى مجموعها - قد كتبت بعد موسى عليه السلام بأزمان متقاربة، وبأفكار مختلفة، وأن اليهود كتبوها انعكاسا لأخلاقهم، وتاريخهم وآمالهم وآلامهم .. ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا فى كتابتها، امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات، والتحريف والتخريف !

ورحم الله الشيخ « رحمة الله الهندى » فقد تناول فى الكلام عن أسفار العهدين: العتيق والجديد .. كل باب من أبوابها، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين، ثم تناول بعد ذلك مافى الكتابين من الاختلاف والأغلاط .. ثم عقد بابا خاصا لإثبات التحريف فى كتب العهدين .. مصداقا لقوله تعالى:

(١) قصة الحضارة: ٣: ٣٨٨ : ديورانت : ترجمة محمد بدران .

﴿يُخْرِقُونَ أَلْسِنَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (١).

وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد، وكان يأتي التحريف أحيانا بالزيادة، وأحيانا بالنقصان، وأحيانا بالتبديل اللفظي، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً، كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهداً.. مما يدل على سعة اطلاع، وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم! (٢)

حقاً.. إنه تحريف وتخريف!

(٢) مقدمة: إظهار الحق : عمر الدسوقي .

(١) النساء: ٤٦ ، المائدة: ١٣ .

الفصل الثالث

الأسفار وأنبياء بني إسرائيل

إسحاق ويعقوب - لوط وبناته - آل يعقوب -
موسى وهارون - داود وآله - سليمان وأمه -
أخلاق يهود.

إسحاق ويعقوب :

والحديث عن القبائح التى نسبها اليهود زورا إلى أنبياء بنى إسرائيل يدل دلالة واضحة على أنهم ليسوا بأهل لأن يكونوا كذلك، إذا اعتمدنا أسفارهم المقدسة عندهم، لأنهم نسبوا إليهم افتراء ما ينقض الرسالة والنبوة، وزعموا أن بعضهم قد بلغ من الانحطاط الخلقى ما لا يرضى به فاسدو الخلق ملوثو الضمير من البشر، إلا من انحدروا إلى البهيمية السافلة !

وحتى لا يطول بنا الحديث، نبدأ بسفر التكوين فى الإصحاح السابع والعشرين، فيما يتعلق بإسحاق عليه السلام وفيه مائنه :

« لما شاخ إسحاق ، وكلت عيناه عن النظر، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى ، فقال له: ها أنذا . فقال : إننى شخت ، ولست أعرف يوم وفاتى ، فالآن خذ عدتك : جعبتك وقوسك واخرج البرية، وتصيد لى صيدا ، واصنع لى أطعمة كما أحب ، وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية يصطاد صيدا يأتي به .

وأما رفقة فكلمت ابنها يعقوب قائلة: إنى قد سمعت أباك يكلم أخاك عيسو قائلاً: ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فيما أنا أمرك به، اذهب إلى الغنم، وخذ لى من هناك جدين جديدين من المعزى، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته .

فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لابركة .

فقالت له أمه: لعنتك على يا ابنى، اسمع لقولى فقط، واذهب خذ لى، فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جدى المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز الذى صنعت فى يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال: بأبى، فقال: ها أنذا، من أنت يا ابنى ؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا

عيسو بكرك، قد فعلت كما علمتني، قم، اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك .
فقال إسحاق لابنه: ماهذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسر
لى، فقال إسحاق ليعقوب: تقدم لأجسلك يا بنى، أنت هو ابنى عيسو أم لا؟

فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه، فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين
يدا عيسو، ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه، وقال: هل أنت
هو ابنى عيسو؟ فقال: أنا هو؟ فقال: قدم لى لأكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى،
فقدم له فأكل، وأحضر له خمرا فشرب، فقال له إسحاق أبوه: تقدم وقبلنى يا بنى، فتقدم،
وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال: انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب،
فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك
شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيدا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك
ملعونين، ومباركوك مباركين.

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه
أن عيسو أخاه أتى من صيده، فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لأبيه: ليقم
أبى ويأكل من صيد ابنه، حتى تباركنى نفسك، فقال له إسحاق أبوه: من أنت؟ فقال أنا
ابنك بكرك عيسو.

فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدا، وقال: فمن هو هذا الذى اصطاد صيدا وأتى به
إلىّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته، نعم، ويكون مباركا.

فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا، وقال لأبيه: باركنى أنا
أيضا يا أبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك، فقال: ألا إن اسمه دعى
يعقوب، فقد تعقبني الآن مرتين: أخذ بكوريتى، وهو ذا الآن قد أخذ بركتى، ثم قال:
أما أبقى لى بركة؟!

فأجاب إسحاق وقال لعيسو: إبنى قد جعلته سيدا لك، ودفعت إليه جميع إخوته
عبيدا، وعضدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع إليك يا ابنى؟ فقال عيسو لأبيه: ألك بركة
واحدة فقط يا أبى، باركنى أنا أيضا يا أبى، ورفع عيسو صوته وبكى.

فأجاب إسحاق ابنه وقال له: هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من
فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمع تكسر نيره عن عنقك.

فحقّد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه بها أبوه، وقال عيسو فى قلبه:
قربت أيام مناحة أبى، وأقتل يعقوب أخى .

فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر،
وقالت له: هو ذا عيسو أخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك، فالآن يا ابنى، اسمع لقولى ،
وقم اهرب إلى أخى لابان إلى حاران، وأقم عنده أياما قليلة، حتى يرتد سخط أخيك ،
حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ما صنعت به، ثم أرسل فأخذك من هناك».

ويعمضى سفر التكوين فى إصحاحاته الأخرى ساردا قصة يعقوب الذى يمضى إلى
حاران، وينزل لدى خاله لابان - كما يقول الأستاذ أحمد عطار (١) - ويتفق على خدمة
سبع سنين، على أن يعطيه ابنته الصغرى راحيل، وانتهت المدة، وأقيم حفل الزفاف، ودخل
يعقوب على زوجه، وفى الصباح اكتشف أنها ليست راحيل، وإنما هى ليئة ابنته الكبرى،
فعاتب يعقوب خاله، وهذا نص سفر التكوين:

« لماذا خدعتنى ؟ فقال لابان : لا يفعل هكذا فى مكاننا أن نعطى الصغيرة قبل
البكر » (٢)

واتفق يعقوب مع خاله أن يعطه راحيل بعد أسبوع، على أن يخدم لديه سبع سنين
أخرى، وأخذ راحيل، لكن ليئة هى التى ولدت له، ولم تلد له راحيل إلا بآخرة .

وقصة إسحاق مع ابنه كما تذكرها التوراة غريبة من الغرائب، هذه التوراة التى يعتقد
أهل الكتاب أنها وحى من الله !

وفى القصة مجال لأسئلة كثيرة ، ليست هى وأجوبتها فى صالحهم بحال من
الأحوال :

أولا: إن يعقوب - وهو نبي - خدع أباه وخانه، بل خدع إلهه، وانتزع البركة
والنبوة انتزاعا من أبيه بدون رضا منه .

وهنا يبدو سؤال لا بد منه: أترى يعقوب النبي يكون أمينا على الوحي، إذا لم يكن
على هواه، بعد خيانتة أباه وخداعه ربه ؟

(١) اليهودية والصهيونية: ٥٥ وما بعدها يتصرف .

(٢) سفر التكوين: الإصحاح: ٢٩ : ٢٦ .

ثانيا: إن هذه الجريمة التى تقوم على خيانة الأب وخداع الرب، تجعل يعقوب غير أهل للاضطلاع بعبء النبوة والرسالة، لأن من لا يؤمن فى أمور الوحي والرسالة والنبوة لا يمكن أن يكون أهلا للنبوة.

إن مجرد الخيانة والكذب والخديعة لا يسمح لمن يتصف بها أن يكون نبيا، فإذا كان الكذب والخداع والخيانة متصلة بالنبوة نفسها، فإن من يتصف بها لن يكون أهلا للنبوة ألبتة، ومع فقدان الأهلية يكون مستوجبا لتقمة الله وغضبه، وموضع سخطه ولعنه.

ثالثا : أيمك المخلوق - ولو كان رسولا نبيا - أن يهب النبوة والرسالة أحداً من الناس؟!

إن النبوة والرسالة لا يملكها غير الله الخالق وحده، لا يملكها إسحاق ولا أعظم من إسحاق!

رابعا: يمكن للرسول أن يدعو الله بأن يجعل رسالته فى أحد من خلقه، كما دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

ونفرض أن إسحاق خص ابنه عيسو بحبه ورضاه، وأراد له الخير، وعزم أن يدعو الله أن يهب النبوة له، فيتنكر يعقوب فى زى عيسو ويأتيه، فيدعو الله أن يهب له النبوة، وهو يدعو من ضميره لعيسو لا ليعقوب .

وإذا جازت خديعة رفقة وابنها يعقوب على إسحاق لشيخوخته وكرال بصره، فلم يميز بين عيسو الذى يريد أن يخصه بدعوته وبين يعقوب الذى تظاهر بين يديه بأنه عيسو ، أفتجوز الحيلة والخديعة والمكر على الله؟!

إن إسحاق شعر أن وراء الأمر ما وراءه ، وساوره الشك فسأل: «أأنت هو ابني عيسو أم لا» ؟

فأجاب: « أنا هو » فكان الدعاء لعيسو لا ليعقوب، ولكن إله إسحاق يتبعه فى هذا فتصرف النبوة من عيسو إلى يعقوب !

وكيف يرضى إسحاق بمكر يعقوب ؟ وإذا رضى إسحاق أو تغاضى عن مكر يعقوب ، أفيكون الله فى يد الخادعين الكاذبين ، يجعل رضاه تبعاً لرضا الكاذبين والمخدوعين ؟!

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ومعاذ الله أن يختار لأشرف رسالة من يطلبها كذباً وميناً وخيانة !

وتعالى الله علواً كبيراً أن تجوز عليه حيل المبطلين الفاسقين ، وهو العليم بخائنة الأنفس وما تخفى الصدور ، فضلاً عن ظواهر الأعمال والأقوال !

وإن يعقوب عليه السلام معصوم ومنزه عن مثل هذه الأعمال الباطلة ، ولن يكون كما وصفته التوراة من القبايح والمنكرات ، لأنه نبي صادق ... ورسول حق .

والإسلام يرى إسحاق ويعقوب من كل ما قذف به ، وهذا هو القرآن الكريم يصفهما بقوله : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّنْ حَمِيمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ (١) ﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۚ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ۝ (٢) ﴾ .

﴿ وَأَوْفَىٰ بِعَهْدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۚ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۚ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِيَارِ ۝ (٣) ﴾ .

ومع هذا فإن الأسفار عند هؤلاء تجعل بيئة الرسل والأنبياء بيئة غش وكذب وفجور وسرقة ! فخال يعقوب غشاش ، وعده براحيل ثم أدخل عليه ليفة ! وابنة يعقوب تزنى ! وراحيل تسرق أصنام أبيها !

وها هو سفر التكوين يقول بالنص :

« وخرجت دينة ابنة ليفة التى ولدتها من يعقوب لتنظر بنات الأرض ، فرأها شكيم بن حمور الحوي ، رئيس الأرض ، وأخذها واضطجع معها وأذلها » ! (٤)

(١) مريم : ٤٩ - ٥٠ . (٢) الأنبياء : ٧٢ - ٧٣ .

(٣) ص : ٤٥ - ٤٧ . (٤) سفر التكوين : ٣٤ : ١ - ٢ .

ويقول:

« فسرقت راحيل أصنام أبيها، وخذع يعقوب قلب لابان » (١) .

لوط وبناته:

ولوط عليه السلام مقذوف من التوراة بقذيفة ماحقة، تمحقه هو وأسرته، ولا ترحمه، فتزعم التوراة أنه زنا بابنتيه، وهذه رواية سفر التكوين بالإصحاح التاسع عشر:

« وصعد لوط من صوغر، وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل أهل الأرض، هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنحیی من أيننا نسلا، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إننى قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه الليلة أيضًا، فادخلی أنت واضطجعى معه، فنحیی من أيننا نسلا، فسقيا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموابيين إلى اليوم، والصغيرة أيضًا وضعت ابنا ودعت اسمه بن عمى، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم !

ويعجز الخيال الشاخص ذاته عن تصوير هذه الجريمة البشعة من الجرائم المنكرة !

وإذا كانت بنات الأنبياء يقعن في هذا الضرب الفاحش المقيت من الزنا الشاذ العفن، فإن وقوع غيرهن في الخطيئة العادية أمر لا غبار عليه، لأن لهن أسوة ببنات الأنبياء .

وإذا أخطأت امرأة من بنات الشعب فعذرهما قائم، ولا عقوبة عليها، لأن بنتى لوط لم تعاقبا من الله، ولا من الناس، بل أكرمهما الله بذرية كان منها أنبياء، بل وصل التكریم إلى حد أن يكون من سلالتهم من أصبح في زعمهم إلها - كما سيأتى - وهذا الإكرام مناقض نفسه، لأن الله - كما يزعمون - حرم وجود أهله من الموابيين والعمونيين، فكيف يجتمع هذان النقيضان في وقت واحد؟!

وما في الدنيا اجترأ على الحق والفضيلة مثل اجترأ بنتى لوط - كما يزعمون - فقد رأتا ما حلَّ بقومهما بسبب جريمة خلقية منتشرة في بلدهما، فقد أبادها الله وأهلها وجعل

(١) المرجع السابق: ٣١: ١٩ - ٢٠ .

عاليها سالفها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود، ومع كل هذا يقتربا أبشع جرم وأقذره، إذا يزنيان مع أبيهما! لوط عليه السلام!

أى شيطانة فى الدنيا ترى انتقام الله الشديد ثم ترتكب ماهو أبشع مما جلب انتقام الله؟ ولكن بنتى لوط تريان عذاب الله يحل ببلدهما ثم ترتكبان شرا من تلك الجريمة، ومع من؟ مع نبي بار كريم، وأب بار رحيم!

ومع تلك الجريمة البشعة المزعومة، نجد بنى موآب وبنى عمون قرييين من الله الذى أمر موسى كما يذكر سفر التثنية بقوله :

« لاتعاد موآب، ولاثر عليهم حربا، لأنى لأعطيك من أرضهم ميراثا، لأن لبنى لوط قد أعطيت عاد ميراثا .

أنت اليوم مارٌ بتخم موآب بعدا، فمتى قربت إلى اتجاه بنى عمون لاتعاديهم، ولاتهجموا عليهم، لأنى أعطيك من أرض عمون ميراثا، لأن لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا».

وهذا الأمر الصادر إلى موسى، أمر عجيب يثير الدهشة، فبنو موآب وبنو عمون، أى بنو لوط لا يصابون بأى أذى، بل لا يصاب موآب وعمون «بِنَ عَمَى» بأى سوء، مع أنهما ولدا زنا من محرم فى أعلى طبقة وأجل مرتبة بين المحارم طرا!

أيرى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى زنا المحارم لاغبار عليه؟!

وإذا تركنا هذا وجدنا بشاعات تتناسل من البشاعة الأولى، بشاعة زنا لوط بابنتيه، فموآب وعمون المولودين من بنتى لوط من أبيهما ينسلان ذرية، وفى عمود نسب المسيح نجد «عوييد» جد داود مولودا - كما يقولون - من «راعوث» المואبية، ونجد «رحبعام» ابن سليمان مولودا من «نعمة» العمونية، والدا سليمان من الخاطئين، لأن داود أباه زنا بأمه المسماة «بتشيع» وكلهم كما يروى إنجيل متى فى إصحاحه الأول فى عمود نسب المسيح!

وراعوث جدة داود وسليمان وعيسى، وداود ابن الله البكر، وسليمان ابن الله وعيسى ابن الله الوحيد، بل الله الابن على زعمهم، وابن «نعمة» العمونية من أولاد عمون، والدة «رحبعام» بن سليمان الذى هو من أجداد عيسى!

وإن هذا الشرف العظيم الأسمى الذى كان من نصيب موآب وعمون ابنى الزنا - أقدر زنا على الإطلاق فى وجه الأرض - شرف دونه كل شرف فى العالم، فبعض بنات موآب صارت جدة أبناء الله، وبخاصة الله الذى هو يسوع - كما يزعمون - وبعض بنات عمون جدة ابن الله الوحيد، بل جدة « الله » الإبن !

وكيف يقبل بنو إسرائيل هذا، مع أن التوراة التى بين أيديهم تقول فى سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين فى فاتحته مانصه:

« لا يدخل مخصى أو محبوب فى جماعة الرب، لا يدخل ابن زنا فى جماعة الرب، حتى الجيل العاشر، لا يدخل منه أحد فى جماعة الرب، لا يدخل عمونى ولا موآبى فى جماعة الرب، حتى الجيل العاشر، لا يدخل أحد منهم فى جماعة الرب إلى الأبد » .

أما فى الإسلام فحسبنا أن نقرأ فى القرآن الكريم:

﴿ وَلَوْ طَءَ أَيْتُهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ الَّذِي كَانَ تَكْعَلُ الْحَبِيبَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ۖ ﴾ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ (١)

﴿ وَاسْتَمِعِلْ وَأَلِيسْ وَلَوْ طَءَ وَكَلَّا فَضِلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۖ ﴾ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَخَوَانِهِمْ وَأَجَبْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (٣)

﴿ وَإِنْ لَطَمْنَا لَنَا الرُّسُلَ ۖ ﴾ (٨٧) إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿ (٨٨) الْإِنجُورَ أَفْطَحِينَ ۖ ﴾ (٨٩)

والرسول فى الإسلام معصوم منزّه عن كل ما يعيب ويشين، وأما ابتناه اللتان نجتا معه فلا يمانهما كانت نجاتهما، ومحال منهما مانسب إليهما، ومحال أن يرتكبا الفاحشة مع أبيهما رسول الله الأمين، وكل الرسل معصومون منزّهون، ومن المستحيل أن يرتكب الزنا رسول .

هذا هو رأى الإسلام، بل هذا هو عقيدة الإسلام، وهذا هو الفارق بين الإسلام وسائر ماعداه، رسل الله يمتازون بالنظافة والطهر والنبيل، إذ هم فى أعلى مراتب العصمة فى هذا المقام وتمام الخلق .

(٢) الأنعام: ٨٦ - ٨٧ .

(١) الأنبياء: ٧٤ - ٧٥ .

(٣) الصافات: ١٣٣ - ١٣٥ .

والعقل نفسه يرد قذيفة الكتاب المقدس لدى بنى إسرائيل .. وإذا كانت بنتاه حريصتين على أبناء يرثون حياته ، فكان فى وسعهما نصح أبيهما، وإذا كانتا أردتا منه نسلا فما أدراهما أنهما يحملان بنسل ذكر ؟!

آل يعقوب :

وآل يعقوب تصورهم التوراة صورة بشعة قدرة، وتذكر أن ابنة يعقوب المسماة «دينة» من زوجته «ليئة» بنت لابان خاله زنت مع شكيم بن حمور الحوى !

وابن يعقوب المسمى «رأوبين» من زوجته «ليئة» وهو أكبر أبنائه زنى بسرية أبيه المسماة «بلهة» وهذه رواية سفر التكوين:

« ثم رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدد، وحدث إذ كان إسرائيل ساكنا فى تلك الأرض أن «رأوبين» ذهب واضطجع مع «بلهة» سرية أبيه، وسمع إسرائيل^(١).

ويهوذا بن يعقوب زان أثيرم ! يهوذا - هذا - يزنى بزوجة ابنه ، واسم هذه الزوجة «ثامار» وها هى ذى قصة الزانيين كما يرويها سفر التكوين بالإصحاح الثامن والثلاثين :

« أُخْبِرَتْ «ثامار» وقيل لها: هو ذا حموك صاعد إلى «تِمْئَة» ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترميها، وتغطت ببرقع، وتلففت، وجلست فى مدخل «عيناييم» التى فى طريق «تِمْئَة» .. فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها قد غطت وجهها فمال إليها فى الطريق، وقال: هاتى أدخل عليك، لأنه لم يعلم أنها كتنه، فقالت: ماذا تعطينى لكى تدخل على ؟! فقال: إني أرسل جدى معزى من الغنم، فقالت: هل تعطينى رهنا حتى ترسله ؟ فقال: ما الرهن الذى أعطيك ؟ فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك، فأعطاه ودخل عليها، فحبلت منه، ثم قامت ومضت، وخلعت عنها برقعها، وليست ثياب ترميها .

فأرسل يهوذا جدى المعزى بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها، فسأل أهل مكانها قائلا: أين الزانية التى كانت فى «عيناييم» على الطريق ؟ فقالوا: لم تكن هاهنا زانية. فرجع إلى يهوذا وقال: لم أجدها، وأهل المكان أيضا قالوا: لم تكن هاهنا زانية. فقال يهوذا: لتأخذ لنفسها لثلا نصير إهانة، إني قد أرسلت هذا الجدى وأنت لم تجدها.

(١) سفر التكوين : ٣٥ : ٢١ - ٢٢ .

ولما كان ثلاثة أشهر أخبر يهوذا، وقيل له: قد زنت « ثامار » كنتك، وهامى حبلى من الزنا! فقال يهوذا: أخرجوها لتحرق!

أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميمها قائلة: من الرجل الذى هذه له أنا حبلى، وقالت: حقق لمن الخاتم والعصاية والعصا هذه؟!

فتحققها يهوذا وقال: هي أبر منى، لأننى لم أعطيها لشييلة ابنى فلم يعد يعرفها أيضا.

وفى وقت ولادتها إذا فى بطنها توأمان، وكان فى ولادتها أن أحدهما أخرج يدا فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزا قائلة: هذا خرج أولا ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج، فقالت: لماذا اقتحمت؟ عليك اقتحام، فدعى اسمه « فارض » وبعد ذلك خرج الذى على يده القرمز، فدعى اسمه « زارح ».

ولم يعمل يعقوب شيئا، لا لرأوبين الذى زنا « بيلة » ولا ليهوذا الذى زنا « بثامار » بل أطرى يهوذا عند موته!

ويهوذا الزانى يطرى ثامار الزانية ويقول: إنها أبر منى، كأنه هو بار حتى تكون أبر منه، والعجيب أن يكون الزناة بررة!

وقد سبق أن أشرنا إلى أن فى عمود نسب المسيح وداود وسليمان من يسمى «عوبيد» وعوبيد هذا وهو ابن « راعوث » الموابية وموآب ابن بنت لوط من أبيها بالزنا، وفارض ابن زنا، وهو من أجداد سليمان وداود.

وشمشون الجبار زان أثيم على رواية الكتاب المقدس فى سفر القضاة الذى يقول: «وكان رجل من صُرْعَة من عشيرة الدانيين اسمه «منوح» وامرأته عاقر لم تلد، فترأى ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت عاقر لم تلد، ولكنك تحبلين وتلدن ابنا.

وإن الصبى يكون نذير الله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين.

« وصلى منوح » إلى الرب، وقال: أسألك ياسيدى أن يأتى أيضا إلينا رجل الله الذى أرسلته، ويعلمنا ماذا نعمل للصبى الذى يولد، فسمع الله لصوت « منوح » فجاء ملاك الله أيضا إلى المرأة وهى جالسة فى الحقل، و« منوح » رجلها ليس معها فأسرعت المرأة وركضت وأخبرت رجلها وقالت له: هو ذا قد تراءى لى الرجل الذى جاء إلى ذلك اليوم، فقام « منوح » وسار وراء امرأته، وجاء إلى الرجل وقال له: أنت الرجل الذى تكلم

مع المرأة فقال أنا هو ، فقال « منوح » عند مجيء كلامك ماذا يكون حكم الصبي ومعاملته؟ فقال ملاك الرب لمنوح :

من كل ماقلت للمرأة فلتحتفظ، الخ .

وملاك الرب فى لهيب المذبح « ومنوح » وامرأته ينظران، حينئذ عرف « منوح » أنه ملاك الرب .

ولدت المرأة ابنا ودعت اسمه « شمشون » فكبر الصبي ، وباركه الرب، وابتدأ روح الرب يحركه (١) .

ذهب « شمشون » إلى غزة ورأى هنالك امرأة زانية فدخل إليها .. فاضطجع « شمشون » إلى نصف الليل .

وكان بعد ذلك أن أحب امرأة فى وادى سودق اسمها « ديلة » (٢) .

وأسلمته « ديلة » إلى أعدائه فقلعوا عينيه وصار يطحن فى السجن . فشمشون رسول عندهم ، ومع هذا يزنى !

موسى وهارون :

وموسى عليه السلام لم يسلم من طعنات الكتاب المقدس ، مع أنه موصوف منه بأنه أعظم أنبياء بنى إسرائيل ، فسفر التثنية - أحد أسفار التوراة - يقول فى وصفه (٣) :

« ولم يقم بعد نبي فى إسرائيل مثل موسى الذى عرف الرب وجهها لوجه » .

موسى عليه السلام لم يسلم من اليهود ، فقد طعنوه فى إيمانه ، وجعلوه خائناً ، وهو هو ذا سفر التثنية يقول ما نصه (٤) :

« وكلم الرب موسى فى نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل « عباريم » .. ومت فى الجبل الذى تصعد إليه ، وانضم إلى قومك ، كما مات أخوك هارون فى جبل « هور » وضم إلى قومه ، لأنكما خنتما فى وسط بني إسرائيل . إذ لم تقدسانى فى وسط بني إسرائيل » .

(٢) سفر الخروج : ٢ .

(٤) سفر التثنية : ٣٢ .

(١) سفر القضاة : ١٣ .

(٣) سفر التثنية : ٣٤ : ١٠ .

بل إن موسى طلب من ربه ألا يكلفه بالرسالة ، ففي سفر الخروج قال (١) :
 « استمع أيها السيد ، أرسل بيد من تريد ، فحمى غضب الرب على موسى » .
 وفي سفر العدد: (٢)

« قال الرب لموسى وهارون: من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل .. إلخ » .

فموسى وهارون خائنان ، لا يقدران ربهما ، ليس هناك جريمة فى العقيدة الدينية أكبر ولا أفظع من خيانة الرسول لله الذى أرسله ، وعدم تقديس الله !
 هذا مايقوله أهل الكتاب فى كتابهم المقدس هذا ، وكلهم يؤمنون به حق الإيمان ، مع أن هذه التهم باطلة كاذبة !

أما مايقول الإسلام فى موسى وهارون عليهما السلام فنيقض مايقول أهل الكتاب وها هو ذا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۖ هَارُونَ أَخِي ۖ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۖ كَيْ نُتَّقَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۖ إِنَّكَ كُنْتَ بَصِيرًا ۖ ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ (٣)

﴿ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ۖ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۖ ۝٣٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يُرْجَعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقُولُ اسْمِعُوا فَنُتَّقَ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ۖ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ ۝٣٩﴾ (٤)

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۖ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ﴾

فلا شيء مما اتهم به كتاب هؤلاء موسى وهارون عليهما السلام ، بل هو الكذب الصراح ، فموسى لم يطلب إلى ربه أن يعفيه من الرسالة ، ولم يخن موسى وهارون ربهما ،

(١) سفر الخروج: ٤: ١٣ - ١٤ . (٢) سفر العدد: ٢٠: ١٢ . (٣) طه: ٢٥ - ٣٦ .

(٤) طه: ٨٧ - ٩٠ . (٥) مريم: ٥١ - ٥٣ .

وليس حقا أنهما لم يقدسا الله ..

داود وآله :

وداود عليه السلام قد مرغوا سمعته فى الوحل، واتهموه بأنه ارتكب جريمة الزنا، وقذفوا داود وبنيه ووصفوههم بأحط الصفات وأقذرها !

ولو حدث مانسب إلى داود وبنيه من عامة الناس لاستبشع الناس، فكيف وما يحدث يقع ممن يحملون الرسالة ومن أولادهم !؟

يزعم الكتاب المقدس لدى هؤلاء أن داود كان على سطح قصره فرأى امرأة جميلة رائعة الحسن تغتسل، وكانت زوجا لأحد المقاتلين، فسأل عنها، فأخبروه، فبعث إليها، وأحضرها إلى قصره، وكانت قد طهرت من حيضها، فزنا بها داود، وحملت منه سفاحا، ولما ظهر حملها خافت الفضيحة، فأعلمت داود ليتلافها !

ولم تعى داود الحيلة فبعث إلى زوجها وأحضره، وبعد سؤال وجواب. صرفه ليمضى إلى زوجه ويبيت لديها، ويحضر إليه فى الصباح، ولكن الزوج لم يمض، بل قضى ليلة مع خدم دواود، فلما علم داود بما صنع الزوج، احتال حيلة أخرى، فقد دعاه إلى طعام، وأسكره حتى المساء، ثم صرفه رجاء أن يمضى إلى منزله ويبيت مع زوجه، حتى ينسب إليه الحمل، وتستتر الفضيحة

ولكن الزوج أصر على موقفه، ولم يمض إلى زوجه.

ولم يعجز داود عن الحيلة، فبعث رسالة إلى قائد قواته المحاربة، وأمره فيها أن يجعل الزوج، واسمه « أوريا الحثي » فى وجه الحرب، حتى إذا تقدم رجع عنه الجيش، ليضرب ويموت، وحدث ماأمر به داود فقد قتل « أوريا » وخلا له الجوى، واستولى على امرأته، وضمها إلى نسائه، وولدت له من ذلك السفاح ولدا أحبه حبا عظيما، ولكن الله انتقم من داود بموت ثمرة زناه، وأوعده بأنه يجعل أحد أبنائه يزنى بنسائه على مرأى من بنى إسرائيل، ونفذ الله وعيده، فزنا « أبشالوم » بن داود بنساء أبيه واحدة بعد واحدة أمام عيون الشعب !

هذا ما يضيفه الكتاب المقدس على داود وأهله، وها هو ذا نص ماجاء فى سفر

صموئيل الثانى أحد الأسفار المقدسة بكتابهم المقدس: (١)

(١) سفر صموئيل الثانى : ١١ .

« كان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، كانت المرأة جميلة المنظر جدا ، فأرسل داود ، وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه « بثشبع » بنت « أليعام » امرأة « أوريا الحثي » ؟

وأرسل داود رسلا وأخذها ، فدخلت إليه ، فاضطجع معها ، وهى مطهرة من طمئنها ، ثم رجعت إلى بيتها .

وحبلت المرأة ، فأرسلت ، وأخبرت دواود ، وقالت : إني حبلت !

فأرسل داود إلى « يوباب » يقول : أرسل إلى « أوريا الحثي » فأرسل « يوباب » « أوريا » إلى داود ، فأتى « أوريا » إليه ، فسأله داود عن سلامة « يوباب » وسلامة الشعب ، ونجاح الحرب .

وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك ، واغسل رجلك .

فخرج أوريا من بيت الملك ، وخرجت وراءه حصاة من عند الملك ، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته ، فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟

فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يوباب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا أتى إلى بيتى لأكل وأشرب ، واضطجع مع امرأتى ! وحياتك و حياة نفسك لا أفعل هذا الأمر .

فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا ، وغدا أطلقك .

فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود ، فأكل أمامه وشرب ، وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده ، وإلى بيته لم ينزل !

وفى الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوباب ، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .

وكان فى محاصرة يوباب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه ، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوباب ، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أوريا الحثي أيضا .

فأرسل يوباب ، وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلا : عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك : لماذا

دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أيما لك بن يربوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحي من علا السور فمات فى « تاباص » ؟ لماذا دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثى أيضا !

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوبآب ، وقال الرسول لدواد : قد تجبر علينا القوم ، وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثى أيضا !

فقال داود للرسول : هكذا تقول ليوبآب ، لا يسؤ فى عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته . وصارت له امرأة ، وولدت له ابنا ، وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عين الرب !

وتكملة هذه القصة بالإصحاح الثانى عشر من سفر صموئيل الثانى ، وها نحن أولاء ننقل منه الحوار الذى جرى بين ناثان وداود :

« قال ناثان لداود : أنت هو الرجل ؟ هكذا قال الرب إله إسرائيل : أنا مسحتك ملكا على إسرائيل ، وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك ، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا ، وإن كان ذلك قليلا كنت أزيد لك كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ؟ وقد قتلت أوريا الحثى بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطينهن لقريبك فيضطجع مع نساءك فى عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس !

فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الرب .

فقال ناثان لداود : الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت .

وذهب ناثان إلى بيته .

وضرب الرب الولد الذى ولدته امرأة أوريا لداود فنقل ، فسأل داود الله من أجل الصبي ، وصام داود صوما ، ودخل وبات مضطجعا على الأرض ، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزا ، وكان فى اليوم السابع أن الولد مات ، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات ، لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيا كلمناه ، فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له : قد مات الولد ، يعمل أشر ؟

ورأى داود عبيده يتناجون ، فقطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا : مات .

فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ، ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته ، وطلب فوضعوا له خبزا فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذى فعلت ؟ لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزا ، فقال : لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، لأنى قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمنى الرب ويحيا الولد ، والآن قد مات ، فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أردّه بعد ؟ أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلى !

وعزى داود بتشبع امرأته ، ودخل إليها ، واضطجع معها ، فولدت ابنا ، فدعا اسمه سليمان ، والرب أحبه !

وفى أسرة داود .. فى أولاده ما تثير منكراتهم البشعة الاشمئزاز ، فهذا أمنون بن داود يزنى بأخته من أبيه داود ، واسمها « ثامار » بنت داود ، وكان قد احتال على الخلوه بها بعد أن برح به الشوق إلى مضاجعة أخته !

وها هو ذا سفر صموئيل الثانى يتحدث بما نصه (١) :

« كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل أخته ثامار ، لأنها كانت عذراء ، وعسر فى عيني أمنون أن يفعل لها شيئا ، وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعى أخى داود ، وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح أما تخبرنى ؟

فقال له أمنون : إنى أحب ثامار أخت أبشالوم أخى .

(١) سفر صموئيل الثانى : ١٣ .

فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني خبزا ، وتعمل أمامي الطعام لأزى فأكل من يدها .

فاضطجع أمنون وتمارض ، فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك : دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين ، فأكل من يدها .

فأرسل داود ثامار إلى البيت قائلا : اذهبي إلى بيت أمنون أخيك ، واعملی له طعاما .

فذهبت إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت ، وعملت كعكا أمامه ، وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل ، وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عني ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون : إيتي بالطعام إلى المخدع فأكل من يدك .

فأخذت ثامار الكعك الذي عملته ، وأتت به أمنون أحاها إلى المخدع ، وقدمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها : تعالی اضطجعي معي يا أختي ، فقالت له : لا ، يا أخي لا تدلني .. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك .

فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها ، وقهرها ، واضطجع معها ، ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة !

وأما داود فكل ما عمل هو ما يقول سفر صموئيل في آخر الإصحاح الثالث عشر نفسه : « ولما سمع الملك داود بجميع هذه الأمور اغتاظ جدا » .

الاغتيال وحده ، ولا شيء مما حمل أبشالوم أن يقتل أمنون ، ولكن بعد سنتين ، وأبشالوم هذا هو الذي حدث بينه وبين أبيه داود خلاف أدى به إلى ادعاء الملك ، حتى هرب داود من وجهه خوفا ، وترك قصره وفيه عشر من سراريه لحفظه .

وفي آخر الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين ما يأتي :

« نصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل » .

ولكن أبشالوم قتل بعد ذلك في الحرب بينه وبين أبيه ، فكان أبوه داود يقول سائلا :

« أسلام للفتى أبشالوم ؟ (١) فلما علم أنه قتل أخذ يصيح : ابني أبشالوم ! يا ابني أبشالوم !
يا ليتني مت عوضاً عنك يا أبشالوم ! ابني ! يا ابني !

الحق أن كل ما نسب إلى داود عليه السلام يثير مع الغضب الاشمئزاز ، ولم يكن ذلك وحده موضع السخط والاشمئزاز بل الله جل جلاله وعلاه وعز ذكره عرضه الكتاب المقدس عندهم لاستنكار حكمه ، فداود زنا ، كما يزعمون ، وقتل زوج المرأة التي زنا بها ، وزنا داود استوجب غضب الله ، لأنه ارتكب ما حرم الله ، فيعاقبه الله بفعله من جنس فعله ، بل على أبشع وأقذر ! فقد كان الحكم أن يزني ابنه أبشالوم بنسائه !

وزنا المحارم أشد وأبغض إلى الله .. وفي الوقت ذاته يكون زنا ابن داود بنسائه جهرًا ونهارًا وأمام عيون الشعب !

هذا ما يقرره الكتاب المقدس !

والسؤال الذى يتوارد هنا : إذا كان مثل هذه المنكرات البشعة القذرة العفنة تحدث عن الأنبياء والمرسلين وأولادهم فى بنى إسرائيل ، فما تكون حال عامة الناس ؟ ! .
وكيف يكون هذا حال الأنبياء والمرسلين ؟ !

وكيف يعبد الناس ربا يعاقب على الزنا العادى بزنا غاية فى البشاعة والنكر ؟ !
تعالى الله علوا كبيرا ..

وإن الإسلام يبرىء داود من هذه التهمة ، ويثبت له العصمة ، ويشهد له بالنزاهة والنسام فى خلايقه ، يقول تعالى :

﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُلْ عِبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُمْ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا
الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُتْبَىٰ وَالْإِشْرَاقَ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ۝ وَشَدَدْنَا
مُلْكَهُ وَبَعَثْنَا فِيهِ الْقِكْمَةَ وَقُضِلَ الْإِنطَابُ ۝ ﴾ (٢)

إنه يذكر هنا داود بأنه ذو القوة وبأنه أواب .. وقد سبق ذكر قصته وظهوره فى جيش طالوت ، فى بنى إسرائيل من بعد موسى .. وقتل داود جالوت ، وكان إذ ذاك فتى .. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى أصبح ذا سلطان ، ولكنه كان أوابا رجاعا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

(١) سفر صموئيل الثانى : ١٨ : ٢٣ : ١٩ : ٤ . (٢) ص : ١٧ - ٢٠ .

قال البخارى : الأواب : الراجع المنيب . وأخرج ابن جريح من طريق مجاهد قال :
الأواب : الرجاء عن الذنوب . ومن طريق قتادة قال : المطيع ، ومن طريق السدى قال :
هو المسيح (١) .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبا ذاakra ، وصوتا رخيما يرجع به تراتيله التى
يمجد فيها ربه (٢) .. وبلغ من قوة استغراقه فى الذكر ، ومن حسن حفظه فى الترتيل ، أن
تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير فى
صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة
عليه ، تسبح معه لمولاه ومولاه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَبٍّ ۝
أَوَّابٌ ﴾

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ .. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى
والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه فى تمجيده وذكره .. والطير تتجمع على
نغماته لتسمع له وترجع معه ... لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ،
ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس
الجبال !

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة ، وراء تميز
الأجناس والأشكال والسمات .. حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله : أحيائه
وأشياءه جميعا .. وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ،
فإن تلك الحواجز تنزاح ، وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم ، فتتصل من وراء حواجز
الجنس والشكل والصفة والسمة التى تميزهم وتعزلهم فى مألوف الحياة !

ولقد وهب الله عبده داود عليه السلام هذه الخاصية ، وسخر الجبال معه يسبحن
بالعشى والإشراق ، وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله ، وكانت هذه فوق
الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

يروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

(١) فتح البارى : ٦ : ٤٥٨ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٣٠١٧ بتصرف .

« خُفِّفَ علي داود عليه السلام القرآن ، فكان يأمر بدوايه فتمسرحُ ، فيقرأ القرآن قبل أن تُسرح دوايهُ ، ولا يأكل إلا من عمل يده » . (١)

قال ابن حجر : فى رواية الكشميهنى « القراءة » قيل : المراد بالقرآن القراءة ، والأصل فى هذه اللفظة : الجمع ، وكل شىء جمعته فقد قرأته ، وقيل : المراد الزبور ، وقيل التوراة ، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذى أوحى إليه ، وإنما سماه قرآنا للإشارة إلى وقوع المعجزة به ، كوقوع المعجزة بالقرآن ، أشار إليه صاحب المصابيح ، والأول أقرب ، وإنما ترددوا بين الزبور والتوراة ، لأن الزبور كله مواعظ ، وكانوا يتلقون الأحكام من التوراة .. وفى الحديث أن البركة قد تقع فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير . (٢)

﴿ وَشَدَّدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَنْتَبَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾

فكان ملكه قويا عزيزا .. وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا . وفصل الخطاب : قطعه والحزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال فى الحكم والسلطان فى عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ، وكانت عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه ، وكانت يد الله معه :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَتَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِنُحْيٍ وَلَا تَسْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَأَلْهَمْنَاهَا لِدَاوُدَ رِي فِي الْخُطَابِ ۝ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى تَجَاعِهِ وَإِنْ كَثُرَ زَمِنٌ خَطَا لِيُنَبِّئَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَتْهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَفَعَلْنَا لَهُ ذَلِكَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْزَلْ لَنَا لَوْ وَحَسَنَ مَتَابٍ ۝ ﴾

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شئون الملك ، ويخصص البعض الآخر للخلو والعبادة فى المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلو لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

(٢) فتح البارى : ٦ : ٤٥٥ بتصرف .

(١) البخارى : ٦٠ - الأنبياء (٣٤١٧) .

(٣) ص : ٢١ - ٢٥ .

وفى ذات يوم كانت المفاجأة، حين تسور الخصم المحراب، ففزع منهم، فبادروا
باطمئنانه:

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وجئنا للتقاضى أمامك :

﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وبدأ أحدهما فعرض

خصومته:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ قَالَ اهْنِئْتُمْ بِهِ عَزَى فِي الْخِطَابِ﴾

أى شدد على فى القول وأغلظ .

والقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلما صارخا لا يحتمل التأويل ..
ومن ثم اندفع داود عليه السلام يقضى على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه
إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، لكنه مضى يحكم :

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾

قال الشهاب : (١) فيه مبالغة من وجوه: وصفهم بالقلة، وتنكير « قليل » وزيادة « ما »
الإبهامية. والشئ إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب، فكأنه قيل: ما أقلهم.

وفى قضائه عليه السلام هذا، من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين
المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهرا لا محاباة فيه
ولا موارد، فأقر عين المظلوم، وعرف الباغى ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف
فوقه، ثم نفس عن قلب المظلوم البائس، وروح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه
الخلعة - خلعة البغى وعدم الإنصاف - مع الخلطة والخلعة، ليتأسى ويتسلى، كما قيل: «إن
التأسى روح كل حزين» ثم أكد الأمر بقلعة القائمين بحقوق الأخوة، ممن آمن وعمل
صالحا، فكيف بغيرهم؟ وكلها حكم وغرر ودرر، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد
الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة والصداقة .. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى
آدابها علماء الأخلاق إسهابا نوعوا فيه الأبواب، ولونوا فيه الفصول .. ومع ذلك لاتزال
الشكوى عامة، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب، كما لا يخفى على من له
إلمام به ..

(١) تفسير القاسمى : ١٤ : ٥٠٨٧ بتصرف .

﴿وَصَلَّى دَاوُدُ أَمَّا فَتْنَةً﴾

أى ابتليناه بتلك الحكومة .

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا . وَأَنَابَ فَفَتَنَّا لَهُ ذَلِكَ﴾

أى ما استغفر منه .

﴿وَلَنَّا لَهُ عِندَنَا الرِّزْقُ وَحُسْنِ مَتَابٍ﴾

أى لقربا ومرجعا حسنا وكرامة فى الآخرة .

ومع ذلك خاضت بعض التفاسير فى الإسرائيليات المردودة رواية ودراية ! (١)
إنهم نسبوا إلى داود عليه السلام التهجم بالاطلاع على عورة امرأة أجنبية عنه !

ونسبوا إليه انتهاك حرمة الجوار !

ونسبوا إليه الغدر بزواج المرأة ليستولى عليها !

كما نسبوا إليه عدم الاكتفاء بتسع وتسعين ، ومن ثم اتخذ الإجماع وسيلة إلى ضم
تلك الزوجة إلى نسائه !

وكل هذه أمور يستحيل صدورها من نبي معصوم ، لأنها منافية للعصمة التى قامت
الأدلة على ثبوتها .

والقصة - كما سبق - سبقت مساق المدح لداود عليه السلام .. وقد بدأت بقوله
«اصبر» وهنا نبصر الإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل عليهم صلوات الله
وتسليماته .. (٢) الطريق الذى يضمهم أجمعين . فكلهم سار فى هذا الطويق .. كلهم
عانى .. وكلهم ابتلى .. وكلهم صبر .. وكان الصبر هو زادهم جميعا ، وطابعهم
جميعا .. كل حسب درجته فى سلم الأنبياء .. ولقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة
بالبلاءات ، مفعمة بالآلام ، وحتى السراء كانت ابتلاء ، وكانت محكا للصبر على النعماء
بعد الصبر على الضراء ، وكلتاها فى حاجة إلى الصبر على الاحتمال :

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

(١) انظر: تفسير مقاتل: ٣: ١٢٦٦ - ١٢٦٨ ، وتفسير الطبرى: ٢٣: ١٤٣ وما بعدها .

(٢) فى ظلال القرآن: ٥: ٣٠١٦ .

﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضَّلْنَا لِيَجِئَ أَوَّيْمَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (١)

قال ابن حزم فى رده على هؤلاء بعد أن ذكر قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾

إلى قوله :

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنَّا مُنْقَرًا لَهُ ذَالِك﴾ (٢)

وهذا قول صادق صحيح لا يدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلاشك مختصمين فى نجاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر، على نص الآية، ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل وقوله مالم يقل، وزاد فى القرآن مالم يس فيه، وكذب الله عز وجل، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الملائكة، لأن الله تعالى يقول :

فقال هو : لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما « تسع وتسعون نعمة » ولا كان لأحدهما « نعمة واحدة »، وقال له « أكفنيها » فأعجبوا. لم يحمون فيه أهل الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك دليل، بل الدعوى المجردة. وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يعرض زوجها للقتل عمدا، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لأفعال أهل البر والتقوى . فكيف برسول الله ﷺ الذى أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجدا ومغفرة الله تعالى له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي . ولا من مذهب ولا من غير مذهب . فالنبي يستغفر الله لمذنبى أهل الأرض، والملائكة كما قال الله تعالى :

(١) سبأ : ١٠ .

(٢) الفصل فى الملل والنحل : ٤ : ١٨ - ١٩ وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، دار الفكر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ .

﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبِّكَ وَسَعِيَ كُلِّ شَيْءٍ وَرَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ (١).

وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام :

﴿وَضَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾

وقوله تعالى :

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾

فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة .

فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه (٢) .

فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله له تعالى هذا الظن . إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة .

قال القاسمي : وهو وقوف على ظاهر الآية ، مجردا عن إشارة وإيماء . (٣)

وقال البرهان البقاعي في تفسيره : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود !

ثم قال : وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام ، لأن عيسى عليه السلام من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه !

ثم قال : وقوله تعالى « فغفرنا له ذلك » أي الوقوع في هذا الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لدواد عليه السلام في الأحكام . وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئا في مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله :

﴿وَأَن لَّهٗ عِندَنَا لُزْزٌ وَحُسْنُ مَّعَآبٍ﴾

فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال . وأول دليل على ما ذكرته ، أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب على الحكم ، لا بامرأة ولا غيرها ، وأما ما ذكره من قصة الأمر باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور ، ومذكور ، وهو عين الزور !

(١) غافر : ٧ . (٢) انظر : مسلم : ٤٦ - القدر ١٧ (٢٦٥٤) والترمذي (٢١٤٠) .

(٣) تفسير القاسمي : ١٤ : ٥٠٩٠ وما بعدها بتصرف .

وقال ابن كثير: (١) قد ذكر المفسرون هاهنا قصة، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضى الله عنه، ويزيد ضعيف الحديث عند الأئمة. قلت: قال النسائي وغيره في يزيد: متروك. (٢)

قال ابن كثير: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقال القاضى عياض: وأما قصة داود عليه السلام، فلا يجب أن يلتفت إلى مأسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح.

وقال ابن القيم: وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدّ داود ملكا حكيما، لأنبياء، بدليل ذكره في أسفار الملوك منها، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له: «قاشان» - ضرب له المثل المذكور - فدعوى مردودة من وجود:

منها: أن الاستدلال بالتوراة التي بين أيديهم في إثبات أو نفي لايعول عليه. كيف لا؟ وقد أوتينا الحقيقة بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى.

ومنها: أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين، فلا عبرة بخلاف غيرهم.

ومنها: أنه لا مانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أَرَادَهُ اللهُ واصطفاه، وقد فعل ذلك بـداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أنه لا حاجة في كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء في غيره، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب، أو هي إليه، لاستغنائه بنفسه. بل وكونه مهيمنا على سائر الكتب، كما أخبر الله تعالى. فليتأمل ذلك. (٣)

وأختم الحديث هنا بما رواه البخارى عن مجاهد قال: قلت لابن عباس أنسجد في «ص»؟ فقرأ:

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾

(١) تفسير ابن كثير ٤: ٣١ بتصرف. (٢) انظر: ميزان الاعتدال ٤: ٤١٨ والمغنى في الضعفاء ٢: ٧٤٧.

(٣) تفسير القاسمي ١٤: ٥٠٩٢ بتصرف.

حتى أتى :

﴿فَبَدَّلَ اللَّهُ فَتْنَهُمْ﴾ (١).

فقال ابن عباس رضى الله عنهما: نبيكم ﷺ من أمر أن يقتدى بهم . (٢)

سليمان وأمه :

ومع كل هذا لم يكف الكتاب المقدس عند بنى إسرائيل عن طعن داود وبعض أولاده: (٣) ابنته « ثامار » وابنيه « أمنون » و « أبشالوم » ونسائه - كما أسلفنا - حتى أضاف هذا الكتاب طعن سليمان بن داود طعنات فى الصميم، فقد طعن أم سليمان وجعلها تحمل سفاحا، وطعن أباه داود فى اقتراف الزنا مع أمه !

وبعد هذا كله تجعله مرتدا، وهذا سفر الملوك فى الإصحاح الحادى عشر يقول : «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلون إليهم، ولا يدخلون عليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه .

وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساء أملىن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين .

وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم . والملوك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتى يوقدن ويذبحن لآلهتهن .

فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين، وأوصاه فى هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان : من أجل ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقا، وأعطيها لعبدك، إلا أنى لأفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها .

(٢) البخارى : ٦٠ - الأنبياء (٣٤٢١) .

(١) الأنعام : ٨٤ - ٩٠ .

(٣) اليهودية والصهيونية : ٨٠ وما بعدها بتصرف .

وسليمان نبى ، ولا يكون النبى نبيا إلا إذا كان موحدا بالله وحده، كافرا بكل ما عداه من الآلهة المتخذة من عبادها الكافرين، ومع ذلك يحق له الكتاب المقدس عندهم محقا، فيتهمه بعضيان الله جهرا من أجل شهواته، من أجل نساءه ، فيبنى المرتفعات للأصنام ، ويتبع آلهة أخرى إرضاء لأزواجه، ويتهمه بالكفر !

وليس أبشع ولا أشر من اتهام النبى بمعصية الله ورد أمره وإعلان الكفر، ولا يقبل عقلا ولا ديناً أن يكون الأنبياء والمرسلون كما تصف التوراة وأسفارهم المقدسة عندهم، لأن ذلك يناقض ما اختارهم الله له من الرسالة والنبوة، وهؤلاء المختارون إنما اختيروا لأنهم المثل الأعلى للبشر فى الخلائق والصفات والأعمال الصالحة .

وحسبنا أن نذكر قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهَبْنَا دَاوُدَ سُلَيْمًا نَحْمُ الْمَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١)

أخلاق يهود :

ومن الغريب أن أسفار اليهود تنسب إلى الله عز وجل ما لو نسب إلى مخلوق لخط من كرامته وشأنه، ولا شماس منه الناس !

فالنبي عندهم « هوشع » يأمره الله - كما يفترضون - بأن يتخذ زانية ، ويصاحب حبيبة صاحب، وهذا هو ذا سفر « هوشع » - أحد الأسفار المقدسة - يقول فى الإصحاح الأول من الفقرة الثانية وما بعدها :

« أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب ، خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى، تاركة الرب ، فذهب وأخذ جומר بنت وبلايم، فحبلت ، وولدت له ابنا، فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل ...

ثم حبلت أيضا ، وولدت له بنتا، فقال له الرب : ادع اسمها لورحامة . ثم فطمت لورحامة ، وحبلت فولدت ابنا ، فقال : ادع اسمه لوعمى » .

وفى الإصحاح الثالث، يقول هوشع :

قال الرب لى : « اذهب أيضا ، أحب امرأة حبيبة صاحب، وزانية، كمحبة الرب لبنى إسرائيل، وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى » .

(١) ص ٣٠٠ .

وماذا يبقى من شرائع الأخلاق وآداب السلوك وفضائل المجتمع وذخر الفرد والجماعة إذا كان الله يأمر باتخاذ ماينقص الأخلاق ويحطم الفضائل ، وإذا كان من وكل إليهم هداية البشر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقارفون أشد الموبقات والعهر والفجور نتنا؟!

إذا كان الله يأمر أحد أنبيائه عندهم - وهو هوشع - بأن يأخذ زانية، ويعاقب داود على زناه بأجنبية بأن زنى ابنه بنسائه ، فماذا يبقى للفاجرين والزناة من عامة الناس ؟!

تعالى الله عما يفترون علوا كبيرا .

ومحال على الأنبياء والمرسلين ما يصفهم به الكتاب المقدس - كما يفترون - ولا يمكن أن يختار الله أحدا من خلقه للنبوة إلا وهو فى أعلى مراتب الكمال الإنسانى .

وكل ما جاء فى الكتاب المقدس لدى هؤلاء من وصف الأنبياء والمرسلين بما لا يليق من الصفات إنما هو كذب محض !

والشئ الذى يجدر بالوقوف عنده ولوع هذا الكتاب المقدس بالزنا والخمر والحيل والخداع والكذب وهتك الأعراض وزنا المحارم فى بيئة الرسل والأنبياء وأسرههم !

ولا شك أن ما يوجه اليهود إلى أنبيائهم ورسلهم من تهمة هتك الأعراض والزنا والقتل إنما هو انعكاس صحيح صادق لما يعيش فيه اليهود من السفالة، فهم مولعون بزنا الأبعاد والأقارب والمحارم ، وهم مولعون بأن يجعلوا منكراتهم وموبقاتهم سائغة غير مستنكرة ، ومن ثم اتهموا أفضل الخلق وهم الرسل بما اتهموهم به من الفسق والفجور حتى يكون لهم العذر فى سفالاتهم ، هكذا يتوهمون !

فإذا كان أفضل الخلق طهرا، وهم الأنبياء والرسل ، إذا كانوا زناه وقتله وكذابين فلا لوم على الناس إذا سلكوا مسلكهم وتخلقوا بأخلاقهم !

حقا إنها أخلاق يهود !

والإسلام ينزه الرسل والأنبياء من كل عيب ونقص، ويثبت لهم العصمة، وكل من طعنهم الكتاب المقدس لدى اليهود نزههم الدين القيم - كما أسلفنا - وهذا فارق ما بين الدين القيم واليهودية فى هذا المقام ، فالإسلام دين سمح نظيف عفيف كامل فى كل خصائصه ومعامله .

والإسلام - آدابا وسلوكا وشريعة وعقيدة - الدين الوحيد الذى تنزه عن كل مايعيب، وغيره لايرقى إلى مرتبة الدين الحق ، لأن الإسلام قائم على الإيمان بوحداية الله وكماله المطلق، والإيمان برسله وكمالهم الإنسانى، وبالكتب التى أنزلها الله على رسله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى مقدمة مزايا الإسلام على جميع العقائد التى تصورها مصادرها: تنزيه الله، ووصفه بالكمال المطلق فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله وتوحيده، وإثبات الألوهية له وحده دون سواه، والكفر بالآلهة المخترعة، والأصنام المصنوعة.

ولهذا يرد الإسلام كل صفة لا تتفق مع كمال الله وجلاله، ولا يقبل ما نسب إلى الله فى قصص أنبياء بنى إسرائيل - كما أسلفنا - مما ازدحم بأساطيرهم وحكاياتهم الكتاب المقدس عندهم !

الفصل الرابع

ضلالات التلمود

التلمود ومكانته - الله فى التلمود - أرواح اليهود - اليهود والسلطة - غير اليهود - اليهود والتملك - مشروعية القتل - اغتصاب النساء - القسم فى التلمود - تدمير الهيكل - الدين التلمودى والهندوسية - خرافات التلمود: التنجيم - السحر - أصل السحر الذى يعمل به اليهود - سبب النزول - نبذ اليهود كتاب الله - اشتغالهم بالسحر - فى ظلال الآية - السحر فى بعض أنواعه كفر ومتعلمه كافر - من السبع الموبقات - حديث السحر - الحديث ثابت عند أهل العلم - متى كان السحر وما مدته؟ - «التخيل» من قول عائشة على سبيل المبالغة - لا تصديق للمشركين ولا موافقة - أعلى درجات الصحيح السبع - لا منافاة بين الآية والحديث - حكم المتواتر - الحديث من أعلام النبوة - العرافة - قول الدكتور «جوزيف بار كلى» - ماذا تقول العبرية؟ - حرق التلمود وإعدامه - مناظرات بين المسيحيين واليهود - مريم وعيسى - معسكر واحد - شاهد على الحقيقة.

التلمود ومكانته :

يقول الدكتور أحمد شلبي^(١) : بين أيدينا مرجع يعد مصدرا أساسيا عند الحديث عن التلمود، ذلك هو « الكنز المرصود في قواعد التلمود » ومؤلفه هو الدكتور « روهلنج » الذى كان مدرسا بجامعة « براج » وقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور يوسف نصر الله، ومرجع آخر وثيق الصلة به وهو « التلمود شريعة إسرائيل » وسنقبس منهما تعريفا بالتلمود وموجزا لأهم مباحثه.

يرى الفرنسيون من اليهود^(٢) أن التوراة ليست هي كل الكتب المقدسة، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.. وتلك الروايات هي التى تعرف بالتلمود، وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى « يوضاس » أن تلعب أيدي الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة، فجمعهما فى كتاب سماه « المِشْنا » ومعنى كلمة « المِشْنا » الشريعة المكررة، لأن « المِشْنا » تكرر لما ورد فى تورا موسى وليس « المِشْنا » إلا إيضاحاً وتفسيرا وتكميلا لهذه الشريعة.

وفى السنين التالية أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيرا من الزيادات على ما دونه « يوضاس » وأتم يهوذا سنة ٢١٦ م تدوين هذه الزيادات، والروايات الشفوية، وأصبحت كلمة « المِشْنا » تضم كل ما كتب من عهد « يوضاس » إلى عهد « يهوذا ».

واستعصت « المِشْنا » على بعض القراء، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشى كثيرة وشروحا مسهبة، وسميت هذه الحواشى وتلك الشروح باسم « جِمارا ».

ومن « المِشْنا » و « الجِمارا » يتكون التلمود ، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم ، « المِشْنا » الذى به زيادات لحاخامات فلسطين يسمى هو وشروحه « تلمود أورشليم » أما « المِشْنا » الذى به زيادات لحاخامات بابل فيسمى هو وشروحه « تلمود بابل » وهو المتداول بين اليهود، والمراد عند الإطلاق^(٣).

ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتابا منزلا، ويضعونه فى منزلة التوراة، ويرون أن الله

(١) مقارنة الأديان : اليهودية : ٢٤٩ وما بعدها بتصرف. وانظر: تعريف التلمود فى : فضح التلمود: تعليم الحاخامين السرية : ٢١ وما بعدها: الأب آى . بى . براتائيس . إعداد زهدى الفاتح. دار النفائس.

(٢) أى المنزليون والمنشقون. انظر : اليهود : ٢٠٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٥٠ نقلا عن الكنز المرصود: ٢٩ - ٣٠ بتصرف، والتلمود شريعة إسرائيل : ١٠ - ١١.

أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود، بل يضعون هذه الروايات الشفوية في منزلة أسمى من التوراة.

ويرى بعضهم ألا خلاص لمن ترك تعليم التلمود، واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، ويعدون التوراة خبزاً، ويرون أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الأدم هو التلمود، ويصرحون بأن من يقرأ التوراة بغير المشنا والجمارا فليس له إله.

وتضطرب آراء اليهود أحياناً وهم يضعون التلمود في تلك المكانة، فلا يكتفون بما سبق أن أوردناه من أن التلمود منزل، بل يعلنون أن التلمود إن كان أقوال الحاخامات فهو أيضاً في مكانة التوراة، لأن أقوال الحاخامات هي قول الله الحي، وأن الله يستشير الحاخامات عندما توجد معضلة لا يمكن حلها في السماء (١)، وإذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب، لأن الذي يخالف شريعة موسى خطيئته قد تغتفر، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل (٢).

الله في التلمود :

ويرى التلمود أن الله ندم لما أنزله باليهود وبالهيكل، ومما يرويه التلمود أن الله قال: تبا لي، لأنني صرحت بخراب بيتي، وإحراق الهيكل، ونهب أولادي!

وليست العصمة من صفات الله في رأى التلمود، لأنه غضب مرة على بني إسرائيل، فاستولى عليه الطيش، فحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد أن هدأ غضبه، ولم ينفذ قسمه، لأنه عرف أنه فعل فعلاً ضد العدالة!

ويقرر التلمود أن الله هو مصدر الشر.. وأنه أعطى الإنسان طبيعة رديئة، وسن له شريعة لم يستطع بطبيعته الرديئة أن يسير على نهجها، فوقف الإنسان حائراً بين اتجاه الشر في نفسه، وبين الشريعة المرسومة إليه، وعلى هذا فإن داود الملك لم يرتكب خطيئة بقتله أوريا واتصاله بامرأته - كما سبق - لأن الله هو السبب في كل ذلك (٣).

(١) المرجع السابق، نقلاً عن: الكنز المرصود: ٣٢-٣٣ والتلمود شريعة إسرائيل: ١١-١٢.

(٢) المرجع السابق: نقلاً عن: الكنز المرصود: ٨٧.

(٣) المرجع السابق: ٢٥١ نقلاً عن: التلمود شريعة إسرائيل: ١٧-١٩.

أرواح اليهود :

وتتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ويقول التلمود بالتناسخ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند، وأخذة حاخامات بابل من المجتمع البابلي.

اليهود والسلطة :

وينص التلمود على أنه يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض، لتصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عدوا كأنهم فى حياة النفى والأسر، ويعيش اليهود فى حرب مع باقى الشعوب، حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع، وحينئذ يدخل أفواجا فى دين اليهود، ويُقبلون جميعا، ما عدا المسيحيين، لأن هؤلاء من نسل الشيطان! (١).

غير اليهود :

وجاء فى التلمود أن الإسرائيلى معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن اليهودى جزء من الله، فإذا ضرب أمى إسرائيلى، فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود، ولليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم غير اليهود، والشعب المختار هم اليهود فقط، أما باقى الشعوب فهم حيوانات، ولما قدم بختنصر ابنته إلى زعيم اليهود ليتزوجها، قال له هذا الزعيم: إنى يهودى ولست من الحيوانات، ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم، ولا يجوز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم، ويلزم التلمود بنى إسرائيل أن يغشوا سواهم.. ويمنع التلمود اليهود أن يحيوا غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم، ويجوز استعمال النفاق مع غير اليهود، ولا يجوز أن يقدم اليهود صدقة لغير اليهود! (٢).

اليهود والتملك :

ولما كان التلمود يقرر أن اليهود أجزاء من الله، فإن اليهود لذلك يعتبرون مالكين لكل ما فى الأرض من ثراء بالنيابة عن الإله، وقد جاء فى وصايا موسى: « لا تسرق مال القريب ». وفسر علماء اليهود هذه الوصية بجواز أن يسرق اليهودى مال الغريب، أى

(١) المرجع السابق: ٢٥٢ نقلا عن: الكنز المرصود: ٤٨-٤٩.

(٢) المرجع السابق: نقلا عن: الكنز المرصود: ٥١-٥٥ والتلمود شريعة إسرائيل: ٢٥.

غير اليهودى، فسلب ماله ليس مخالفاً للوصايا، وسار الفكر اليهودى فى التلمود على هذا النحو، فعدت سرقة اليهودى من غير اليهودى استرداداً لأموال اليهود من ساليبها، وأجاز علماء التلمود أن يبيع اليهودى ليهودى شيئاً يملكه غير يهودى، وللمشتري أن يتخذ الوسائل لوضع يده على ما اشتراه، ويساعده كل اليهود ليحصل على حقه، وجاء فى التلمود نص يشرح هذه الفكرة شرحاً وافياً، وهو: إن مثل بنى إسرائيل كمثّل سيدة فى منزلها، يحضر لها زوجها النقود فتأخذها وتنفقها دون أن تشترك معه فى الشغل والتعب، فعلى الأميين أن يعملوا، ولليهود أن يأخذوا نتائج هذا العمل!

ومن الوسائل التى يصطنعها اليهود ليستولوا على ثروات العالم الغش الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، فى حالة البيع أو الشراء، وقال الحاخام «رشى»: «مصرح لليهودى أن يغش غير اليهودى، ويحلف له أيماناً كاذباً!»

ومن الوسائل أيضاً عدم رد الأشياء المفقودة، فقد جاء فى التلمود أن الله لا يغفر ذنباً لليهودى يرد للأمرى ماله المفقود!

ومن الوسائل كذلك الربا الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، فقد جاء فى التلمود: «غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا» (١).

مشروعية القتل:

ولست لأرواح غير اليهود حرمة لدى اليهود، فقد جاء فى التلمود: محرم على اليهودى أن ينجى أحداً من الأميين من هلاك أو يخرجهم من حفرة يقع فيها، بل إذا رأى أحد الأميين يقع فى حفرة لزمه أن يسدها بحجر!

وقال «ميمانود»: الشفقة ممنوعة بالنسبة لغير اليهودى، فإذا رأيته واقفاً فى نهر أو مهدداً بخطر فيحرم عليك أيها اليهودى أن تنقذه، لأن السكان الذين كانوا فى أرض كنعان وقضت التوراة بقتلهم جميعاً لم يقتلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقي أمم الأرض، ولذلك يلزم قتل غير اليهودى، لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهاربين!

وينص التلمود على أن من العدل أن يقتل اليهودى كل أمى، لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله! (٢).

(١) المرجع السابق: ٢٥٣ نقلاً عن: الكنز المرصود: ٥٦، ٦٥ «موجز»، والتلمود شريعة إسرائيل: ٣٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق: ٢٥٤ نقلاً عن: الكنز المرصود: ٦٦ - ٧٧ والتلمود شريعة إسرائيل: ٤٠ - ٤١.

اغتصاب النساء:

وإتيان زوجات الأجانب جائز في التلمود، واستنتج من ذلك الحاخام « رشي » أن اليهودي لا يخطيء إذا تعدى على عرض الأجنبية، لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل هي كبهيمة، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها، وقد أجمع على هذا الرأي الحاخامات « بشاي وليفي وجرسون » فلا يرتكب اليهودي محرماً إذا أتى امرأة مسيحية، وقال « ميمانود » إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات، أي الغير يهوديات^(١).

القسم في التلمود :

وينص التلمود على أن اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مع باقي الشعوب لا تعتبر يمينا، إذ كأنه أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يمينا، فإذا اضطر اليهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك القسم كلاً شياً، ويجوز لليهودي الحلف زوراً إذا حول اليمين لوجهة أخرى، وبخاصة إذا كانت اليمين إجبارية، كأن تكون أمام المحاكم، أو أمام خصم قوي !

وإذا سرق يهودي أجنبياً، وكلفت المحكمة اليهودي أن يحلف اليمين حلف زوراً، ويعين التلمود يوماً كل فترة يسمى « يوم الغفران العام » وفيه يُمحي كل ما ارتكبه اليهود من ذنوب، ومن ضمنها الأيمان الزور^(٢).

تدمير الهيكل :

يقول الأستاذ ظفر الإسلام خان^(٣) : يزعم اليهود أن لهم حق العودة إلى فلسطين، لأنهم أخرجوا من ديارهم مكرهين، وطردها من بلادهم بالقوة. لكن التلمود يكذب كلياً مزاعمهم هذه. فرواية التلمود تؤكد أن الرب أخرج اليهود من ديارهم بمشيئته وإرادته. وفيما يلي تسجيل التلمود لواقعة السبي البابلي وتدمير الهيكل الأصلي :

« عندما بلغت ذنوب إسرائيل مبلغاً، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا للكلمات وتحذير « إرميا » ترك النبي « إرميا » أورشليم، وسافر إلى بلاد

(١) المرجع السابق،، نقلاً عن : الكنز المرصود : ٧١ والتلمود شريعة إسرائيل : ٤٤ - ٦٥.

(٢) المرجع السابق : ٢٥٥ نقلاً عن الكنز المرصود : ٧٤ - ٧٦ والتلمود شريعة إسرائيل : ٤٥ - ٤٦.

(٣) التلمود : تاريخه وتعاليمه ٦٦ وما بعدها بتصرف .

« بنيامين ». وطالما كان النبي لا يزال في المدينة المقدسة كان يدعو للرحمة عليها، فنجت، ولكنه عندما هجرها إلى بلاد « بنيامين » دمر « نبوخذ نصر » بلاد إسرائيل، وحطم الهيكل المقدس، ونهب مجوهراته، وتركه فريسة للنيران الملتهبة، وكان « نبوذردان » الذى أثر البقاء فى « ريبلاه » قد أرسل « نبوخذ نصر » لتدمير « أورشليم ».

وقبل أن يبدأ « نبوخذ نصر » حملته العسكرية سعى لمعرفة نتائج الحملة بواسطة الإشارات، نظرا لذهوله من الموقف، فرمى من قوسه نحو الغرب، فسارت السهم فى اتجاه « أورشليم »، ثم رمى مرة أخرى نحو الشرق، ولكن السهم اتجه نحو « أورشليم »، ثم رمى مرة أخرى، ليتأكد من محل وقوع المدينة المذنبه التى وجب تطهيرها من الأرض، وللمرة الثالثة اتجهت سهمه نحو « أورشليم ».

وبعد أن استولى « نبوخذ نصر » على المدينة توجه مع أمرائه وضباط جيشه إلى داخل الهيكل وصاح ساخرا مخاطبا إله إسرائيل:

« وهل أنت الإله العظيم الذى يرتعد أمامه العالم؟ ها نحن فى مدينتك ومعبدك! »

ووجد « نبوخذ نصر » علامة لرأس سهم على أحد جدران الهيكل، كأن أحدا قتل أو أصيب بها، فسأل: « من قتل هنا؟ » فأجاب الشعب:

« زكريا بن يهودياه »، كبير الكهنة، لقد كان يحذرنا فى كل ساعة من حساب « عقاب » اعتداءاتنا « الرصايا »، وقد سئمنا من كلماته، فانتبهنا منه .

فذبح جنود « نبوخذ نصر » سكان أورشليم، كهنتها وشعبها، كهولها وشبابها، ونساءها وأطفالها، وعندما شاهد كبير الكهنة هذا المنظر ألقى بنفسه فى النار التى أشعلها « نبوخذ نصر » فى الهيكل، وتبعه بقية الكهنة مع عودهم وآلاتهم الموسيقية الأخرى !

ثم ضرب جنود « نبوخذ نصر » السلاسل الحديدية فى أيدي باقى الإسرائيليين وساقوهم إلى السبي .

ورجع إرمياه النبي إلى أورشليم، وصحب إخوانه البؤساء، الذين خرجوا عرايا تقريبا، وعند وصولهم إلى مدينة تسمى « بيت كورو » هيا لهم إرمياه ملابس جيدة. وتكلم مع « نبوخذ نصر » والكلدانين قائلا لهم: « لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التى ساقتهم إلى هذا العذاب ».

وعندما هم « نبوخذ نصر » بقتل جميع الإسرائيليين ، لأنهم رفضوا أن يغنوا أمامه الأغاني التى طالما غنوها فى الهيكل ، جرت محادثة بين « بيلاطيا » ابن يهويا داه أخ النبى « زكريا » قال فيها :

« لقد أعطى الله إسرائيل فى يدك ، وأنت الآن مسئول أمامه عمن تقتلهم » (١) .

ويتضح من هذه الشهادة التى نقلناها دون أى تصرف فى الترجمة أن طرد اليهود من فلسطين وتدمير الهيكل الأسمى الذى بناه سليمان عليه السلام كان بمشيئة الله ، وأن الدعاوى اليهودية ليست إلا استغلالا وكذبا وبهتاناً بدون أساس ، ويتضح هذا أكثر مما جاء على لسان الحاخام « أو شايا » :

« عمل الرب خيرا لإسرائيل ، عندما شئت أبناء إسرائيل بين الأمم » (٢) .

والجدير بالذكر أن هذه هى الفكرة التى كانت تسود الفكر اليهودى حتى القرن التاسع عشر ، إلى أن ظهرت بدعة الصهيونية التى نادت لأول مرة بالعمل لإقامة دولة يهودية ، ولم يكن قادة الصهيونية - كما سيأتى - قد اتفقوا فيما بينهم أول الأمر ، على الأرض التى تقام عليها دولتهم اليهودية ، فى أوغندا ، أو الأرجنتين ، أو البرازيل ، أو جنوب أفريقيا ، أو الجزء الأوروبى من تركيا ، أو العراق ، أو سيناء ، أو استراليا ؟!

وكانت خريطة أوغندا تزين منصة المؤتمرات الصهيونية حتى سنة ١٩٠٤ م .

وكان هناك فى أول الأمر خلاف شديد بين اليهود حول العمل لإقامة دولة يهودية ، إذ كان اليهود المتدينون يؤمنون بأن عودتهم إلى فلسطين ستتحقق بمجيئ المسيح !

حتى ذلك الوقت لم تكن علاقة اليهود بفلسطين أكثر من علاقة روحية .. (٣) .

والحقيقة أن الحركة الصهيونية السياسية لم تتمكن من الاستيلاء على فلسطين إلا بسبب أطماع أعداء الإسلام فى بقاء الاستعمار ، وفى المقدمة بريطانيا ، وإحلال قوم غرباء فى منطقة كانت ستشهد عما قريب حركة وحدوية غير عادية ، بسبب العلاقات التى تربط بين الشعب الذى يعيش من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

وقد ساعدت الكراهية العمياء ، والنزعة الصليبية الحاقدة ، لدى أوروبا وما شاعها على

(٢) انظر المرجع السابق : ٦٩ هامش .

(١) انظر المرجع السابق : ٦٨ هامش .

(٣) انظر المرجع السابق : ٧٠ هامش .

نجاح المخطط، ولا أدل على ذلك من الروح التي كانت تسيطر على القواد الذين غزوا البلاد العربية في الحرب العالمية الأولى، حيث نرى القائد الفرنسي «الجنرال غوروا» الذي دخل دمشق يقول، وقد وضع رجله على قبر صلاح الدين:

«ها نحن عدنا يا صلاح الدين!»

ونرى «الجنرال اللبني» عند دخوله القدس يقول أمام كنيسة القيامة:

«اليوم قد انتهت الحروب الصليبية!»

ويسمّيها الصهيوني «إسرائيل زانجيل» بأنها:

«الحرب الصليبية الثامنة»!

الدين التلمودي والهندوسية:

ويقول الأستاذ ظفر الإسلام خان: خلال بحثي في الدين التلمودي وجدت أن هناك أوجه تشابه عديدة بين معتقدات التلمود والهندوسية، ومنها:

أولاً: يعتقد التلمود أن اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهوديا آخر لا يدخلون الجنة، وإنما «تدخل أرواحهم في الحيوانات والنباتات، ثم تذهب إلى الجحيم، وتعذب عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانية لتدخل في الجمادات، ثم في الحيوانات، ثم في الوثنيين، حتى ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها»^(١).

وعقيدة «التناسخ» هذه موجودة أيضاً في الديانة الهندوسية.

ثانياً: اليهود يقدسون المال إلى أبعد الحدود، والهندوس اتخذوا للمال آلهة تسمى «لاكشمي».

ثالثاً: اخترع السامري اليهودي عجلاً ليعبده قومه، ومن الهندوس من يعبد أو يقدس البقر.

رابعاً: اليهود يعتقدون أن غير اليهود نجسون، ولا يمكن لليهودي أن يدخلهم إلى بيته، أو يأكل عندهم، وليس له أن يتعامل معهم إلا بغرض التجارة^(٢).

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود: مبحث أرواح اليهود والمسيحيين.

(٢) انظر: المرجع السابق: الفصل السادس الأجانب.

والهندوس أيضا يؤمنون بنفس العقيدة القاضية بنجاسة غيرهم ، بمن فيهم المنبوذون والمسلمون والمسيحيون وغيرهم . ولا يزال بعضهم ، والفلاحون منهم ، يباشرون في حياتهم هذه العقيدة، فهم لا يأكلون ولا يشربون مع مؤمنى الأديان الأخرى أو المنبوذين، اللهم إلا الذين تعلموا وتنوروا منهم، وهم لا يزالون قلة (١).

خامسا: يرى اليهود أن تربة فلسطين طاهرة، وهم يدفنون المتدينين من موتاهم في أرض فلسطين منذ قديم الزمان، وإن لم يتيسر لهم ذلك، يضعون مع الكفن شيئا من التراب جلبوه من فلسطين (٢).

والهندوس أيضا يفعلون ما يماثل ذلك، فهم يضعون رماد موتاهم في نهر الكنج المقدس بغض النظر عن أى مكان من الأرض مات فيه هؤلاء، وإن لم يتيسر لهم ذلك، يضعون قطرات من ماء نهر الكنج فوق الكفن قبل حرق الجثة.

وهذه الجوانب المتماثلة بين العقيدتين تؤكد أن هنالك علاقة بينهما، وهذا جانب يستحق الدراسة والبحث.

خرافات التلمود :

ويزخر التلمود بشتى أنواع الخرافات .. منها :

التنجيم :

يقول التلمود: « إن كسوف الشمس آية سوء للشعوب، وكسوف القمر آية سوء لبني إسرائيل ، لأن إسرائيل تعتمد فى بقائها على القمر، وشعوب الأرض تعتمد على الشمس » (٣).

ويعتقد أصحاب التلمود اعتقادا جازما بأن التنجيم علم يتحكم فى حياة الإنسان.

يقول الحاخام « شانينا » : « إن تأثير النجوم يجعل الإنسان ذكيا، وتأثيرها يجعله ثريا، وبنو إسرائيل تحت تأثير النجوم » .

(١) مما يجدر ذكره أن المهاتما غاندى شن حملة شعواء ضد هذه المعتقدات.

(٢) انظر التلمود: تاريخه وتعاليمه : ٧٢ هامش.

(٣) المرجع السابق : ٧٥ هامش وفيه : لعل هذه الأسطورة هى التى ساقط الحاخامات إلى اختلاق قصة القمر الذى قال لله : « إنك خلقتنى صغيرا ..! » .

ومع ذلك النص التلمودى، يعترض الحاخام «يوحنا» على الحاخام «شانينا» قائلا: «بنو إسرائيل ليسوا تحت تأثير النجوم . من أين تثبت هذا؟ لقد قال ربك: «لا تتعلم طريق الوثنيين، ولا تفزعك آيات السماء، لأن الوثنيين أفزعهم آياتها» (١).

السحر :

والتلمود يمتلىء بطقوس السحر والشعوذة والعرافة، ويعتقد بوجود العفاريت، وأن الأرواح الشريرة والشياطين والعفاريت والجنات من ذرية آدم، وهؤلاء يطيطون فى كل اتجاه، ويعرفون أحوال المستقبل باستراق السمع فى السماء، ويضرب لهم مثلاً بـ «الرجال الذين يلعبون الحيل المنحرفة» (٢).

ويمنع الناس من أن يركبوا على ظهور الثيران التى كانت مربوطة فى كشك داخلى ، لأن الشيطان يرقص بين قرنى الثور فى الربط، كما يمنعهم من السلام على أصدقائهم فى الليل ، خوفاً من أن يسلموا على الشياطين والعفاريت !

ويأمرهم أن يريقوا بعض الماء من الإناء قبل أن يشربوا منه، للنجاة مما رشفت منه الأرواح الشريرة، وأن يستشيروا الشيطان فى آخر أيام الأسبوع «الجمعة» والتلمود يورد كثيراً من حيل الشيطان الذى جعل كثيرين، بواسطة تلك الحيل، يتركون قراءة القانون، ثم تمكن من نزع أرواحهم .

أصل السحر الذى يعمل به اليهود :

وهنا نقرأ قوله تعالى :

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا بُعِثُوا بِهِ ۚ وَلَا يَتْلُوهُنَّ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ (٣).

(١) الأدب العبرى : ١٨ .

(٢) التلمود : تاريخه وتعاليمه : ٧٦ وما بعدها بتصرف .

(٣) البقرة : ١٠٢ .

قال الحافظ (١) : فى هذه الآفة بفا اصل السحر الذى فعمل به اليهود؁ ثم هو مما وضعته الشفاطفا على سلفمان بن داود علىه السلام؁ ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل .

والثانى متقدم العهد على الأول؁ لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح علىه السلام؁ على ما ذكر ابن إسحاق وغيره .

وكان السحر موجودا فى زمن نوح؁ إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر!

وكان السحر أيضا فائفا فى قوم فرعون؁ وكان ذلك قبل سلفمان .

سبب النزول :

واختلف فى المراد بالآفة؁ فقفل: إن سلفمان كان جمع كتب السحر والكهانة فدفنها تحت كرسفه؁ فلم فكن أحد من الشفاطفا فستطف أن فدنو من الكرسى؁ فلما مات سلفمان وذهبت العلماء الذين يعرفون الأمر؁ جاءهم شفاطان فى صورة إنسان فقال لليهود: هل أدلكم على كنز لا نظفر له ؟

قالوا : نعم .

قال: فاحفروا تحت الكرسى؁ فحفروا وهو متنف عنهم؁ فوجدوا تلك الكتب؁ فقال لهم: إن سلفمان كان فضط الإنسان والجن بهذا؁ ففشا ففهم أن سلفمان كان ساحرا . فلما نزل القرآن بذكر سلفمان فى الأنفااء أنكرت اليهود ذلك وقالوا: إنما كان ساحرا؁ فنزلت هذه الآفة . أخرج الطبرى وغيره عن السدى .

ومن طرفق سففد بن فففر بسند صففف نحوه .

ومن طرفق عمران بن الحارث عن ابن عباس موصولا بمعناه .

وأخرج من طرفق الربفف بن أنس نحوه؁ ولكن قال: إن الشفاطفا هى التى كتبت كتب السحر ودفنتها تحت كرسفه؁ ثم لما مات سلفمان استخرجته وقالوا: هذا العلم الذى كان سلفمان فكتبه للناس .

(١) فتح البارى : ١٠ : ٢٢٣ .

وأخرجه من طريق محمد بن إسحاق، وزاد أنهم نقشوا خاتما على نقش خاتم سليمان، وختموا به الكتاب، وكتبوا عنوانه:

« هذا ما كتب آصف بن برخياء الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم. »

ثم دفنوه، فذكر نحو ما تقدم.

وأخرج من طريق العوفي عن ابن عباس نحو ما تقدم عن السدي، ولكن قال: إنهم لما وجدوا الكتب قالوا: هذا مما أنزل الله على سليمان فأخفاه منا.

وأخرج بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: انطلقت الشياطين في الأيام التي ابتلى فيها سليمان، فكتبت كتبها فيها سحر وكفر، ثم دفنتها تحت كرسيه، ثم أخرجوها بعده فقرعوها على الناس.

وملخص ما ذكر في تفسير هذه الآية أن المحكي عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين، هم أهل الكتاب، إذ تقدم قبل ذلك في الآيات إيضاح ذلك.

نبذ اليهود كتاب الله :

والجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة من قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق من الذين أوتوا الكتاب لكل عهد يعاهدونه (٢)، فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموه.

فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوى في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشري بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الخاتم وقد نبذوه أيضا !

(١) البقرة: ١٠١.

(٢) في ظلال القرآن : ١ : ٩٤ يتصرف.

وفى الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فلو كانوا هم المشركين الأُميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوماً!

ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب.. هم الذين عرفوا الرسالات والرسول.. هم الذين اتصلوا بالهدى والنور.. وماذا صنعوا؟

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم!

والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم!

ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصرف تصويراً بشعاً زرياً، ينضح بالجحود والكنود، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحة، ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة. حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهر!

اشتغالهم بالسحر :

ثم ماذا؟

ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم؟

ألعلمهم قد لاذوا بما هو خير منه؟

ألعلمهم قد لجأوا إلى حق لا شبهة فيه؟

ألعلمهم قد استمسكوا بكتابهم الذى جاء القرآن يصدقه؟

كلا.. لا شئ من هذا كله!

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليحجروا وراء أساطير غامضة، لا تستند إلى حقيقة ثابتة!

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم، وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين على عهد سليمان، وما يضلون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنه كان ساحراً، وأنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه!

فى ظلال الآفة :

وإذا كنا قد عرفنا أصل السحر الذى يعمل به اليهود، وسبب نزول قوله تعالى :

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ الآية.

فإن ذلك يدفعنا إلى ضرورة أن نذكر بإيجاز أقوال العلماء فيها، وفق ما يلى :

يقول ابن جرير :

يعنى بقوله: الفريق من أحبار اليهود وعلمائها (١) الذين وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذى أنزله على موسى وراء ظهورهم، تجاهلا منهم وكفرا بما هم به عالمون، كأنهم لا يعلمون، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذى يعلمون أنه منزل من عنده على نبيه ﷺ، ونقضوا عهده الذى أخذه عليهم فى العمل بما فيه، وآثروا السحر الذى تلتته الشياطين فى ملك سليمان بن داود فاتبعوه، وذلك هو الخسار والضلال المبين.

واختلف أهل التأويل.. فقال بعضهم: عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ، لأنهم خاصموا رسول الله ﷺ، بالتوراة، فوجدوا التوراة للقرآن موافقة، تأمر من اتباع محمد ﷺ وتصديقه بمثل الذى يأمر به القرآن، فخاصموا بالكتب التى كان الناس اكتبوها من الكهنة على عهد سليمان.. وقال آخرون: بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا على عهد سليمان..

والصواب أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله ﷺ، فجحذوا نبوته وهم يعلمون أنه لله رسول مرسل، وتأنيب منه لهم فى رفضهم تنزيله، وهجرهم العمل به وهو فى أيديهم يعلمونه ويعرفونه ويعرفون أنه كتاب الله، واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلتته الشياطين فى عهد سليمان، وقد بينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إليهم فيما مضى..

وإنما اخترنا هذا التأويل لأن المتبعة ما تلتته الشياطين فى عهد سليمان وبعده إلى أن بعث الله نبيه بالحق وأمر السحرة لم يزل فى اليهود..

وقال ابن حجر فى قوله: (٢).

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّيْطَانُ﴾

(١) تفسير الطبرى: ١: ٤٤٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤.

« ما » موصولة على الصواب ، وغلط من قال: إنها نافية، لأن نظم الكلام يأباه ،
و « تتلو » لفظه مضارع، لكن هو واقع موقع الماضي، وهو استعمال شائع، ومعنى « تتلو »
تتقول، ولذا عدها بعلی، وقيل: معناه تتبع أو تقرأ، ويحتاج إلى تقدير، قيل: هو تقرأ على
زمان ملك سليمان.

قال ابن جرير^(١): والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أخبر عن
الذين أخبر عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان باتباعهم ما تلت الشياطين،
ولقول القائل: هو يتلو كذا في كلام العرب معنيان:

أحدهما: الاتباع، كما يقال: تلوت فلانا، إذا مشيت خلفه، وتبعت أثره، كما قال
جل ثناؤه:

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾^(٢).

يعنى بذلك تتبع.

والآخر: القراءة والدراسة، كما تقول: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه،
كما قال حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد

ولم يخبرنا الله جل ثناؤه بأى معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين الذين تلو ما تلو
من السحر على عهد سليمان بخبر يقطع العذر.

وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا، فتكون كانت متبعتة
بالعمل، ودارسته بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها في ذلك وعملت به وروته.

ونقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال: ثلث: الشعر، وثلث: السحر،
وثلث: الكهانة.

وقال في قوله: ﴿ على ملك سليمان ﴾.

وتبعت اليهود على ملكه، وكان السحر قبل ذلك في الأرض، ولم يزل بها، ولكنه إنما
اتبع على ملك سليمان.

(١) تفسير الطبري: ١: ٤٤٧-٤٤٨.

(٢) يونس: ٣٠.

قال ابن كثير: أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بين أيديهم، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلوه الشياطين، أى ما ترويه وتخبر به، وتحذثه الشياطين على ملك سليمان، وعداه بعلى، لأنه تضمن «تتلو» تكذب (١).

قال ابن جرير: «على» بمعنى «فى» (٢).

قال ابن كثير: والتضمن أحسن وأولى.

وقول الحسن البصرى رحمه الله: وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ (٣).

ثم ذكر القصة بعدها، وفيها:

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (٤).

وقال قوم صالح، وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، لنبيهم صالح:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٥).

أى المسحورين، على المشهور (٦).

وقال ابن حجر فى قوله تعالى:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾

«ما» نافية جزما (٧).

وقوله:

﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾

هذه الواو عاطفة لجملة الاستدراك على ما قبلها.

(٢) انظر تفسير الطبرى: ١: ٤٤٨.

(١) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٦.

(٥) الشعراء: ١٥٣.

(٤) البقرة: ٢٥١.

(٣) البقرة: آية ٢٤٦.

(٧) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤.

(٦) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٦.

وقال ابن جرير فى تأويل قوله (١).

﴿وما كفر سليمان..﴾

إن قال لنا قائل: وما هذا الكلام من قوله:

﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾.

ولا خبر معنا قبل عن أحد أنه أضاف الكفر إلى سليمان، بل إنما ذكر اتباع من اتبع من اليهود ما تلت الشياطين، فما وجه نفى الكفر عن سليمان بعقب الخبر عن اتباع من اتبع الشياطين فى العمل بالسحر وروايته من اليهود؟

قيل: وجه ذلك أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إليهم اتباع ما تلت الشياطين على عهد سليمان من السحر والكفر من اليهود، نسبوا ما أضافه الله تعالى ذكره إلى الشياطين من ذلك إلى سليمان بن داود، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر، فحسنوا بذلك من ركوبهم، ما حرم الله عليهم من السحر لأنفسهم عند من كان جاهلاً بأمر الله ونهيه، وعند من كان لا علم له بما أنزل الله من التوراة، وتبرأ بإضافة ذلك إلى سليمان من سليمان، وهو نبي الله ﷺ منهم بشر، وأنكروا أن يكون كان لله رسولا، وقالوا: بل كان ساحرا، فبرأ الله سليمان بن داود من السحر، عند من كان منهم ينسبه إلى السحر والكفر، لأسباب ادعوها عليه... وأكذب الآخرين الذين كانوا يعملون بالسحر، متزينين عند أهل الجهل فى عملهم ذلك بأن سليمان كان يعمل، فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون ساحرا أو كافرا، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا فى عملهم السحر ما تلت الشياطين فى عهد سليمان، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله، واتباع ما أمرهم به فى كتابه الذى أنزله على موسى صلوات الله عليه.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَرُوتَ وَمَرُوتَ﴾

قال القرطبي (٢): «ما» نفى، والواو للعطف على قوله «وما كفر سليمان» وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك.

(١) تفسير الطبرى: ٤٤٨: ١ - ٤٤٩.

(٢) تفسير القرطبي: ٥٠: ٢.

وقال ابن حجر (١): « ما » موصولة، ومحلها النصب عطفا على السحر، والتقدير: يعلمون الناس السحر، والمنزل على الملكين، وقيل: الجر عطفا على ملك سليمان أى تقولا على ملك سليمان وعلى ما أنزل، وقيل: بل هى نافية عطفا على « وما كفر سليمان » والمعنى ولم ينزل على الملكين إباحة السحر، وهذان الإعرابان يبنيان على ما جاء فى تفسير الآية عن البعض، والجمهور على خلافه، وأنها موصولة، ورد الزجاج على الأخفش دعوته أنها نافية، وقال: الذى جاء فى الحديث والتفسير أولى.

وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبزى والضحاك والحسن: « الملكين » بكسر اللام. قال ابن أبزى: هما داود وسليمان. فـ« ما » على هذا القول أيضا نافية، وضعف هذا القول ابن العربى، وقال الحسن: هما عِلْجَان كانا بيابل ملكين (بكسر اللام) ، فـ« ما » على هذا القول مفعولة غير نافية. (٢).

قال ابن كثير: وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: « يعلمون الناس السحر » و« ما » نافية. (٣).

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

قال ابن حجر: (٤) وذلك أن الملكين لا يعلمان الناس السحر، بل يعلمانهم به، وينهيانهم عنه، والأول أشهر، وقد قال على: الملكان يعلمان تعليم إنذار، لاتعليم طلب.

قال ابن كثير: (٥) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس، قال:

فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى، وقال له: « إنما نحن فتنة فلا تكفر »، وذلك أنهما علما الخير والشر، والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعا فى السماء فيقول: يا حسرتاه! ياويله! ماذا صنع!؟

(١) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤ وانظر: تفسير الطبرى: ١: ٤٥٢ وما بعدها فيه كلام عجيب!

قال ابن كثير: ١: ١٣٧ وهذا الذى سلكه غريب جدا، وأعرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم! انظر: الفصل: ٣: ٢٥٩ وما بعدها، ٤: ٣٢ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبى: ٢: ٥٢. (٣) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٧. (٤) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤.

(٥) تفسير ابن كثير: ١: ١٤٣، وانظر: الطبرى: ١: ٤٥٥ وما بعدها، والقرطبى: ٢: ٥٤ وما بعدها.

وعن الحسن البصري أنه قال فى تفسير هذه الآية:

نعم أنزل الملكان بالسحر، ليعلمنا الناس البلاء الذى أراد الله أن يتلى به الناس، فأخذ عليهم الميثاق ألا يعلموا أحدا حتى يقولوا: «إنا نحن فتنة فلا تكفر» رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾

قال ابن كثير (١): أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به، فيما يتصرفون، من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن إبليس يضع عرشه على الماء. ثم يبعث سراياه. فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا، وكذا. فيقول: ما صنعت شيئا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فقال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت.»

قال الأعمش: أراه قال: «فيلتزمه» (٢).

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر، من سوء منظر أو خلق، أو نحو ذلك، أو عقد، أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة. والمرء عبارة عن الرجل، وتأنثه امرأة، ويثنى كل منهما، ولا يجمعان.

﴿وَمَا هُمْ بِطَارِئِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال الحسن البصري: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى، وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقال ابن جرير (٣): وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه، بضارين بالذى تعلموه منهما من المعنى الذى يفرقون به بين المرء وزوجه، من أحد من الناس، إلا من قضى الله عليه أن ذلك يضره، فأما من دفع الله عنه ضره وحفظه من

(١) تفسير ابن كثير: ١: ١٤٣.

(٢) مسلم: ٥٠ - صفات المنافقين ٦٧ (ت ٢٨١٣).

(٣) تفسير الطبري: ٤٦٣ - ٤٦٤.

مكروه السحر والنفت والرقى ، فإن ذلك غير ضاره ولا نائله أذاه .

وللإذن فى كلام العرب أوجه :

منها : الأمر على غير وجه الإلزام ، وغير جائز أن يكون منه قوله :

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

لأن الله جل ثناؤه قد حرم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر (١) ، فكيف به على وجه السحر على لسان الأمة ؟

ومنها : التخلية بين المأذون له والمخلى بينه وبينه .

ومنها : العلم بالشىء ، يقال منه : قد أذنت بهذا الأمر ، إذا علمت به آذن به إذنا ، ومنه قوله جل ثناؤه .

﴿فَأَذْنُوتُ لِمَاجِرٍ رَبِّكَ اللَّهُ﴾ (٢) .

وهذا هو معنى الآية ، كأنه قال جل ثناؤه : « وما هم بضارين » بالذى تعلموا من المكين من أحد إلا بعلم الله ، يعنى بالذى سبق له فى علم الله أنه يضره ، ونقل عن سفيان فى هذه الآية قال : بقضاء الله .

﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَضرُّهُمْ وَلَا يُنْفَعُهُمْ﴾

قال القرطبى (٣) : « ويتعلمون ما يضرهم » يريد فى الآخرة ، وإن أخذوا به نفعاً فى الدنيا . وقيل : يضرهم فى الدنيا ، لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر فى الدنيا إذا عثر عليه ، لأنه يؤدب ويزجر ، ويلحقه شؤم السحر .

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾

يقول ابن جرير (٤) : يعنى بقوله جل ثناؤه « ولقد علموا » الفريق الذين لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » فقال جل ثناؤه : لقد علم النابذون من يهود بنى إسرائيل كتابى وراء ظهورهم تجاهلا منهم ، التاركون العمل بما فيه ، من اتباعك يا محمد ،

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٩ .

(١) لعله يقصد : حرم التفريق بغير سحر إلا لداع !

(٤) تفسير الطبرى : ١ : ٤٦٤ - ٤٦٧ بتصرف .

(٣) تفسير القرطبى : ٥٥ : ٥٦ .

واتباع ما جئت به، بعد إنزالى إليك كتابى، مصدقا لما معهم، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم، وما فى أيديهم، المؤثرون عليه اتباع السحر الذى تلتته الشياطين على عهد سليمان، والذى أنزل على الملكين بابل هاروت وماروت لمن اشترى السحر لكتابى الذى أنزلته على رسولى فأثره عليه ماله فى الآخرة من خلاق، ونقل عن قتادة قوله: قد علم ذلك أهل الكتاب فى عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة.

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله « ما له فى الآخرة من خلاق » فقال بعضهم : الخلاق فى هذا الموضع : النصيب .. وقال آخرون : الحجة .. وقال آخرون : الدين .. وقال غيرهم : القوام.

ثم قال: ماله فى الدار الآخرة حظ من الجنة، من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين، ولا عمل صالح يجازى به فى الجنة، ويثاب عليه، فيكون له حظ ونصيب من الجنة، وإنما قال جل ثناؤه: « ماله فى الآخرة من خلاق » فوصفه بأن لا نصيب له فى الآخرة، وهو يعنى به لا نصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار، إذ كان قد دل ذمه جل ثناؤه أفعالهم التى نفى من أجلها أن يكون لهم فى الآخرة نصيب على مراده من الخير، وأنه إنما يعنى بذلك أنه لا نصيب لهم فيها من الخيرات، وأما الشرور فإن لهم فيها نصيباً.

﴿وَلَيْسَ بِأَشْرَافِهِمْ أَنْفُسُهُمْ أَلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

يقول ابن كثير^(١): ولبئس البديل ما استبدلوا به السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به.

ويقول ابن جرير^(٢): لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه آمنوا، فصدقوا الله ورسوله، وما جاءهم به من عند ربهم، واتقوا ربهم فخافوه، فخافوا عقابه، فأطاعوه بأداء فرائضه، وتجنبوا معاصيه، لكان جزاء الله إياهم وثوابه لهم على إيمانهم

(١) تفسير ابن كثير: ١: ١٤٤.

(٢) تفسير الطبرى: ١: ٤٦٨.

به وتقواهم إياه خيرا لهم من السحر، وما اكتسبوا به، لو كانوا يعلمون أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر، وما اكتسبوا به، وإنما نفى بقوله: «لو كانوا يعلمون» العلم عنهم أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله وقدر جزائه على طاعته.

السحر فى بعض أنواعه كفر ومتعلمه كافر :

قال ابن حجر (١) : وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر، ومتعلمه كافر، وهو واضح فى بعض أنواعه.. وهو التعبد للشياطين أو الكواكب .

قلت: وقد ذكرت الأقوال فى أنواع السحر الثمانية: ومتى يجوز تعلم السحر وتعليمه، وما يتبع ذلك من مباحث، فى كتاب «السحر والسحرة فى ضوء الحديث النبوى» فليراجعه من شاء.

من السبع الموبقات :

قال ابن حجر: قال النووى: عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبى ﷺ من السبع الموبقات.

يروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« اجتنبوا السبع الموبقات »

قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال:

« الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » (٢).

وحسبنا من تلك الأقوال التى يبدو فيها الاختلاف.. وهى قليل من كثير.. وهى كذلك أرجحها.. حسبنا أنها تسجل ضلالة أخرى من ضلالات اليهود، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم، وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين.. واشتغالهم بالسحر.. بل وسحرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

حديث السحر :

يروى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنهما قالت:

(١) فتح البارى : ١٠ : ٢٢٤.

(٢) البخارى : ٥٥ - الوصايا (٢٧٦٦) ، ومسلم : ١ - الإيمان ١٤٥ (٨٩) .

سَحَرَ رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق، يقال له: لبيد ابن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم - أو ذات ليلة - وهو عندي، لكأنه دعا ودعا. ثم قال:

« يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعده أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجفّ طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان.»

فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال:

« يا عائشة! كأن ماءها نقاعة الحناء. وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين.»

قلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً»
فأمر بها فدفنت (١).

وفي رواية للبخاري:

كان رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال:

« يا عائشة! أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعده أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم. رجل من بنى زريق، حليف لليهود، كان منافقا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر، تحت رعوفه في بئر ذروان.»

قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: «هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين.»

(١) البخاري: ٧٦ - الطب ٤٧ (٥٧٦٣) واللفظ له، ومسلم: ٣٩ - السلام ٤٣ (٢١٨٩)، وأحمد: ٥٧: ٦ وابن ماجه: ٣١ - الطب ٤٥ (٣٥٤٥) وانظر: الطبقات الكبرى: ٢: ١٩٦ - ١٩٩.

قال: فاستخرج. قالت فقلت: أفلا؟ - أى تَنَشَّرَتْ - فقال :

«أما والله! فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» (١).

وفى رواية للنسائي بسند صحيح عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال:

سَحَرَ النَّبِيُّ ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عقداً فى بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله ﷺ فاستخرجوها فجاء بها فقام رسول الله ﷺ، كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لذلك اليهودى، ولا رآه فى وجهه قط (٢).

تلك أهم روايات الحديث، وهى لا تحتاج إلى إثبات صحة..

الحديث ثابت عند أهل العلم:

قال ابن القيم بعد أن ذكر الروايات الدالة على سحر النبى ﷺ (٣).

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون فى صحته.

وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب.

وصنف بعضهم فيه مصنفاً منفرداً حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال:

غلط، واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شىء، قال: لأن النبى ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه تصديق لقول الكفار:

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا جُلُوسُورًا﴾ (٤).

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى:

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ سَاحِرًا﴾ (٥).

(١) البخارى: ٧٦ - الطب ٤٩ (٥٧٦٥).

(٢) النسائي: ١١٢:٧ - ١١٣، وانظر: أحمد: ٣٦٧:٤، والفتح الكبير: ٣: ٣٩٤.

(٣) التفسير القيم: ٥٦٦ وما بعدها بتصرف.

(٤) الإسراء: ١٠١.

(٥) الفرقان: ٨.

وكما قال قوم صالح له:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١).

وكما قال قوم شعيب له:

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٢).

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم، وعصمتهم من الشيطان.

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟! وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث.

ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة.

والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين..

متى كان السحر وما مدته؟:

وقد بين الحافظ فى فتح البارى مدة مرضه بهذا السحر، والسنة التى وقع فيها بما نصه: (٣).

بين الواقدى السنة التى وقع فيها السحر، أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل قال:

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى الحجة، ودخل الحرم من سنة سبع، جاءت رؤساء اليهود إلى ليبد الأعصم: وكان حليفا فى بنى زريق، وكان ساحراً، فقالوا له: يا أبا الأعصم: أبنت أسحرنا، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير.

(٢) الشعراء: ١٨٥.

(١) الشعراء: ١٥٣.

(٣) فتح البارى: ١٠: ٢٢٦.

ووقع فى رواية أبى ضمرة عند الإسماعيلى : فأقام أربعين ليلة.

وفى رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر.

ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوما من استحكامه.

وقال السهيلي: لم أقف فى شىء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التى مكث النبى ﷺ فيها فى السحر، حتى ظفرت به فى جامع معمر عن الزهرى أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولا بالإسناد الصحيح فهو المعتمد.

قال الشنقيطى : (١) والجمع بأن تكون الستة أشهر ابتداء تغير مزاجه عليه الصلاة والسلام، والأربعين يوما من استحكامه هو المتعين، لأنه لم يشتهر أن مرضه هذا عليه أتم الصلاة والسلام طال به، ولو طال به لنقل متواترا، لتوفر الدواعى على نقله، لشدة شأنه عند أصحابه وتابعيهم، لكنه لم يطل، ولم يتعد حال من عقد عن النساء مدة يسيرة فزال ذلك بالقرب.

« التخیل » من قول عائشة على سبيل المبالغة :

وتخیل أنه يفعل الشىء وما فعله لم يرو فى الصحيحين إلا من لفظ عائشة رضى الله عنها، فلم يكن من لفظ رسول الله ﷺ، ولم يشعر لفظها هى أيضا أن ذلك التخیل دام عليه مدة، بل ذكرته على سبيل المبالغة بحتى، حيث قالت: سحر حتى كان يخیل إليه أنه يفعل الشىء وما فعله.

فعله ذات يوم استفهم عائشة عن شىء شك هل فعله أم لا؟ فأطلقت عليه أنه صار يخیل إليه أن يفعل الشىء، أى من أمر نكاح النساء، وهو لم يفعله، لعقده عنهن، فقالت هى ذلك للناس، لتألمها من مرضه عليه الصلاة والسلام، وأما هو عليه الصلاة والسلام فلم يرو عنه إلا الحديث الدال على المرض، بدليل قوله فى مراجعة الملكين الكائنين فى صفة رجلين:

« ما وجع الرجل ؟ » .

فقال المجيب منهما :

« مطبوب » .

(١) زاد المسلم : ٤ : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

وقوله بعد ما أخرج المشط والمشاة وما معهما مما عمل فيه السحر:

«قد عافاني الله».

وفى رواية:

«وشفاني»

ففى نفس الحديث التصريح بالوجع وبالمعافاة منه، فدل هذا على أنه مجرد مرض، وليس فى لفظ الرسول ﷺ أنه صار يخيل إليه فعل ما لم يفعله، وتعبير عائشة بذلك إنما هو على حسب ما ظهر لها أنه تخيل، ولا يلزم من لفظها أنه شىء دائم عليه..

ويؤيد جميع ما قررناه أنه لم ينقل عنه فى خبر ولو نقلا ضعيفا أنه قال قولين فكان الأمر بخلاف ما أخبر به من أمور الدنيا أخرى من أمور الشرع، وما حصل له من المرض بسبب سحر اليهودى لو لم يعين موضع السحر الذى سحر به لتوهم أنه كغيره من البشر إذا أصيب بالسحر، ولكنه أخبر بموضع السحر فأخرج منه، ووجد على الوصف الذى ذكره عليه الصلاة والسلام، وهكذا حال من أكرمه الله واصطفاه بالرسالة.

وقد قالت أخت اليهودى الذى سحره: إن يكن نبيا فسيخبر.

فقد وقع فى مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد، فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبيا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله.

قال ابن حجر: فوقع الشق الأول كما فى الحديث...

فالخاص أن التخيل على فرض حصوله وقتا فى أمر دنيوى لم يستمر بل زال، وأبطل الله كيد الساحر، ولم ينله ضرر منه، إلا ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض.

لا تصديق للمشركين ولا موافقة:

وإذا كانوا يقولون:

إن هذا الحديث يصدق المشركين فى قولهم:

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعِبْنَا وَإِنَّا لَنَجْعَلُ لَكُمْ صُورًا﴾ (١).

(١) الفرقان: ٨.

وأن هذا يزيل الثقة بما جاء به الرسول، فإن الكفار كانوا يقولون :

﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (١).

فهل نكذبهم ؟

وبالإجمال: كانوا يقولون أقوالا كثيرة صادقة فهل نكذبهم فيها لئلا نكون مصدقين للكفار؟.

ما قال هذا أحد!

بل الصدق يجب أن يصدق، والكذب يجب أن يكذب، سواء أكان هذا أو ذاك من كافر أم من مؤمن .

وإنما معنى ذلك أن الظالمين كانوا ينسبون إلى الرسل كل ما يظنونونه قادحا في رسالتهم وصدقهم وإن كان واقعا حقا لا يقدر فيهم، كما ظن هؤلاء أن السحر يقدر في الرسالة فكذبوا الأخبار فيه، والظن خطأ، إذاً ليس كل ما قاله الكفار كذبا، وإذا ليس تكذيبهم في كل شيء قالوه لازما.

وإننا نعلم يقينا أن الكفار لا يريدون بقولهم هذا أن يثبتوا للرسول ﷺ ما أثبتته هذا الحديث ...

إنهم لا يريدون ذلك، وإنما يريدون بقولهم هذا أن رسول الله ﷺ إنما يصدر عن خيال وجنون في كل ما يقول ويفعل، وفيما يأتي ويذر، وأنه ليس رسولا، وأن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو خيال مسحور، وبناء عليه ليس علينا تصديقه، ولا اتباعه، فإذا آمننا بما دل عليه الحديث، قلنا : إن الرسول ﷺ سحر بضعة أيام، لم نكن مصدقين للمشركين، ولا موافقيهم فيما أرادوا، لأن الذي عناه الحديث غير الذي عناه هؤلاء الظالمون، وإذا تغير القصدان لم يكن هناك تصديق ولا موافقة.

وقد علمنا عصمته من جواز الاختلاط عليه في الوحى، وأنه معصوم في تبليغه ببراهين كثيرة .

وإذا كان البرهان على العصمة مما خافوه في جميع الحالات لم نخش ماذكروا (٢).

(١) الفرقان : ٧ .

(٢) دفاع عن الحديث النبوى : ٢٠١ - ٢٠٢ بتصرف .

أعلى درجات الصحيح السبع :

قال الشنقيطي : (١) .

هذا الحديث الصحيح الذى هو أعلى درجات الصحيح السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما، غير مصادم لنص القرآن الذى هو قوله تعالى إخبارا عن قول الكفرة :

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا جُلَاةً مُسُورًا﴾ (٢)

لأن المراد به عندهم أنه مجنون، فهو كقولهم :

إن هو إلا رجل مجنون ! وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك .

لا منافاة بين الآية والحديث :

وإن قدر ضعيف العقيدة أن ظاهر قوله تعالى :

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا جُلَاةً مُسُورًا﴾

يصادم هذا الحديث، فقولهم هذا الذى ذكر الله عنهم فى القرآن كان قبل قصة سحر اليهودى للنبي ﷺ الذى مرض بسببه - كما عرفنا - وبه تعلم أنه لا منافاة بين الآية المذكورة وبين سحر اليهودي له عليه الصلاة والسلام . وقد فصلت القول فى ذلك فى كتاب حديث السحر فى الميزان .

حكم المتواتر :

وبتأمل ما حققناه هنا يظهر أن الحديث إذا اتفق عليه الشيخان صار له حكم المتواتر، كما صرح به الحافظ ابن الصلاح وغيره من الحفاظ، كالحافظ العراقى، وابن دقيق العيد، والحافظ ابن حجر، وغيرهم ..

الحديث من أعلام النبوة :

ولم يقل أحد إن هذا السحر أصاب عقل النبي ﷺ ، ولا خلط عليه شيئا من أمر الرسالة، بل أطلعه الله عليه، فأخبر أصحابه بمحلّه، فوجدوه فى المحل الذى أخبر به، فكان ذلك من أعلام نبوته، وشفى الله رسوله عليه الصلاة والسلام من المرض، وباء الساحر

(٢) الفرقان : ٨ .

(١) زاد المسلم : ٤ : ٢٢٢ بتصرف .

بالخزى ولم يفلح، كما قال تعالى :

﴿وَلَا يَفْلَحُ السَّاجِدُ حَيْثُ أَتَى﴾ (١).

والأمور لا ينظر فيها إلا إلى عواقبها، والنصر فى العاقبة يكون دائما للرسول، ولمن كان على قدمهم من أمهم، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٢).

ولا يضرهم ما يحصل لهم من كفار أمهم، فتأمل منصفاً .

العرافة:

والعرافة من الأعمال المفضلة لدى الخاخامات، ويذكرها التلمود كثيرا، فيقول: « إن بعض الخاخامات كانوا قادرين على خلق الإنسان والبطيخ » (٣) .

وجاء أن أحد الخاخامات أحال امرأة إلى أتان، ثم ركبها وذهب إلى السوق، وهناك قام خاخام آخر بإعادتها إلى صورتها الأصلية .

ويزعم الخاخامات أن إبراهيم عليه السلام ، كان يعرف العرافة، لأنه أعطى بعض الهدايا لأبنائه كانت فيها قوة السحر، وكان هو نفسه يعلق حول عنقه عقدا يتوسطه حجر يشفى كل من رآه !

وهناك قصص وخرافات لانهاية لها عن معجزات الخاخامات وأساطير الأفاعي، والضفادع، والأوز والطيور والأسماك !

والتلمود يقص أسطورة سبع غابة « الآى » الذى أراد قيصر روما رؤيته، فلما وصل على بعد ٤٠٠ ميل من روما زأر سقطت جدران روما، وحين بلغ على مسافة ٣٠٠ ميل زأر مرة أخرى سقط الناس على ظهورهم، وخرجت أسنانهم ساقطة على الأرض، أما القيصر فسقط عن عرشه، وعندئذ ألح القيصر بإعادة السبع إلى مكان مأمون !

ويقول التلمود: إن هناك ثورا وحشا فى اليوم الأول من عمره، حجمه مثل حجم جبل الطور، ولذلك كان من الصعب على سيدنا نوح أن ينقذ أحدا من هذه الثيران، لأنه

(٢) غافر : ٥١ .

(١) طه : ٦٩ .

(٣) التلمود: تاريخه وتعاليمه: ٨١ نقلا عن : الأدب العبرى : ٢٧ - ٢٨ .

لم يكن فى وسعه وضع أحدها فى السفينة، فربط ثورا واحدا بقرنه فى السفينة !

ويرى التلمود أن الله خلق آدم ذا وجهين، رجلا من ناحية، وامرأة من ناحية أخرى، ثم قطعه من النصف، وأن طوله كان يصل القبة الزرقاء، ولكن بعد خطيئته وضع الله يده على رأس آدم وكبسه حتى صار صغيرا، وأنه أتى الخطيئة فى الساعة العاشرة بعد خلقه، ثم طرد من الجنة فى الساعة الثانية عشر !

ويتحدث التلمود عن كثير من الحاخامات الأكلولين السكارى، ويذكر أن أكراش بعضهم طالت بحيث كان من الممكن لو أخرج كرش أحدهم لمشى تحته زوج من الثيران، وأن أحد الحاخامات قتل حاخاما آخر فى حالة سكر، ثم أتى بمعجزة، فأعاد الحاخام القتل إلى الحياة، وفى السنة التالية دعا الحاخام صاحبه لحفل خمر ولكنه رفض قائلا: «المعجزات لا تحدث كل يوم» .

قول الدكتور « جوزيف بار كلى » :

إن التلمود مركب عجيب لآراء متناقضة وخرافية .. ويختلف مع التوراة كثيرا فى أحكامه، ويبيح تقديم الأطفال قربانا للإله « مولوخ » كما يبيح الغش، وفيه أن الحاخامات يعلمون شعهم كراهية المسيحيين والأجانب، ولا يجوز لأحد الأطباء اليهود أن يعالج الأجانب إلا بقصد الحصول على المال، أو للتمرن على المهنة، ولا يجوز له إنقاذ أرواح الأجانب فى مواسم الأمراض.. وهناك خرافات وأعاجيب فى التلمود يضيق المقام عن ذكرها .

وما أصدق ما قاله الدكتور « جوزيف بار كلى » عن التلمود:

بعض أقوال التلمود مغال، وبعضها كرية، وبعضها الآخر كفر، ولكنها تشكل فى صورتها « المخلوطة » أثرا غير عادى للجهد الإنسانى، وللعقل الإنسانى، وللحماقة الإنسانية ! (١) .

ماذا تقول العبرانية ؟

ويقول الدكتور حسن ظاظا أستاذ العبرية بجامعة الإسكندرية :

(١) المرجع السابق : ٩١ .

« قد يستطيع الإنسان تزيف الحقائق، وقد يسهل عليه أن يكذب ويكذب، حتى يصدق هو نفسه كل أكاذيبه، وينسى أنه مخترعها الأصلي، ولكن رغم هذا يبقى دائما شئ واحد: الكلمة المكتوبة منذ آلاف السنين، والآثار التي تحدد بالضبط عمر الأشياء وعمقها، ومخطوطات التاريخ التي تظل دائما هي المرجع، وكلمة الصدق الوحيدة التي لا تميل مع أهواء البشر، حتى إذا حدث ومالت، فبين سطورها تستطيع الحقيقة دائما أن تجد لها مكانا ».

« وعدونا الإسرائيلي حاول كثيرا أن يزيف ويخدع ويتزّ العواطف والأموال والمعونات، وما زال يفعل متجاهلا وناسيا أن مخطوطاته هو وآثاره وتلموده تروى بلغته العبرية حكايات وحكايات تفضح كل محاولاته، تفضح وجوده وتاريخه وتراثه وحقه المدعى في الأرض المغتصبة .. ومن الغريب فعلا أنهم لم يحرقوها أو يدمروها ، كما فعلوا بغيرها، وتركوها تقول كلمة صدق في صف آخر غير صفهم » (١) .

حرق التلمود وإعدامه :

وقد هوجم التلمود بشدة في العصور الوسطى (٢) ، باعتباره أهم مصدر للتعاليم اليهودية التي أدت مقاومة اليهود للسلطة والدين المسيحي، سرا وعلانية، وقد قال الإمبراطور «هونور يوس» في إحدى القوانين التي أصدرها: «إن الخاخامات مخربون » .

وحيث كان العهد القديم - المكتوب بالعبرية - مقدسا لدى المسيحيين أيضا، فكل غضبهم كان موجها إلى التلمود، باعتباره مصدر الشر الكامن في اليهود .

وقد حمل الملوك والباباوات حملات شديدة ضد التلمود، منذ القرن الثالث عشر، وصدرت الأوامر بإتلاف نسخ التلمود في فرنسا في عهد لويس (٣) . من سنة ١٢٢٦ حتى سنة ١٢٧٠ كما حدث ذلك في إنجلترا أيضا سنة ١٢٩٠ حين أمر الملك بطرد اليهود عن البلاد، بعد أن اكتشف حيلهم ومكرهم ومقتهم للشعب الإنجليزي المسيحي .

وتقول دائرة المعارف اليهودية العامة: إن ٢٤ عربية محملة بالكُتب العبرية أحرقت

(١) المرجع السابق: ٩٢ - ٩٣ نقلا عن : أخبار اليوم، القاهرة، لغة العدو - ماذا تقول ؟ عدد ١٨/٧/١٩٧٠ م

(٢) المرجع السابق: ٤٠ وما بعدها بتصرف .

(٣) لأول مرة أحرقت نسخ التلمود في فرنسا سنة ١٢٤٤ في باريس : دائرة المعارف البريطانية ط ١٩٠٥ والولايات

المتحدة : الأمريكية ١٢: مادة «تلمود» .

فى باريس سنة ١٢٤٢ فى يوم واحد، وإن « مثير » من بلدة « روثنبرغ » شاهد هذه المأساة، وألف رثاء منظوما يردد إلى اليوم فى كثير من كنائس اليهود (١) .

وهاجم مجلس المدينة فى بولندا عام ١٨٤٠ « التملود » بأنه « مصدر احتقار اليهودية للدين المسيحى » وكان أسقف بولندا قد فرض قبل ذلك بقرن غرامة على التلموديين، وأمر بإحراق كل نسخ التلمود .

مناظرات بين المسيحيين واليهود :

وأحد أهم الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذه الإجراءات العنيفة هى المناظرات التى كانت تقام بين المسيحيين واليهود، وكان يجب على الحاخامات أن يدافعوا عن فكرهم ويرروا تعاليم التلمود، وكان الذى يدفع المسيحيين إلى إقامة هذه المناظرات هو ارتداد أحد اليهود عن دينه، من وقت إلى آخر، وقبوله المسيحية، واعترافه بتعاليم التلمود الهدامة المعادية للمسيحية وغير اليهود .

وأهم اليهود المرتدين الذين اشتهروا فى فضح ومقاومة التلمود هما « نيكولاس دونين » و « بابلوكريستيانى » .

وقد عقدت مناظرة بين « بابلوكريستيانى » والحاخام « موسى بن نحمان » فى برشلونه سنة ١٢٢٣ م .

ورغم أن « دائرة المعارف اليهودية » تذكر هذه المناظرة الكبرى إلا أنها لاتخبرنا بتأثيرها كشأنها فى إغفال وتجاهل كل مالايروق لها، ولنا أن نستنبط مما ذكرته دائرة المعارف هذه أن البابا « كليمنت التاسع » أصدر مرسوما سنة ١٢٦٤ على أثر هذه المناظرة، أمر فيه بمصادر وإحراق التلمود، ويبدو أن « بابلوكريستيانى » استطاع إفحام الحاخام اليهودى بشأن اتهاماته .

(١) إنه لأمر مريب يشكك فى حقيقة القصة التى سبق ذكرها فى الهامش السابق بأن التلمود أحرق فى باريس لأول مرة سنة ١٢٤٤ ثم يأتى محرر دائرة المعارف اليهودية العامة بعد ٤٣ سنة ليكشف لنا عن واقعة خطيرة، كالتى سبقت أنها وقعت قبل الواقعة المذكورة بستين، وحيث إن الحقائق التاريخية التى نحن بصدها ليست من النوع الذى يكتشف بالحفريات أو الاكتشافات المثيرة عن الصخور، فيبقى سؤالنا قائما: لم سكت محرر دائرة المعارف اليهودية الأول عن هذا الحادث الخطير، ثم خرج به محرر دائرة معارف يهودية أخرى؟! مع ملاحظة أن هذا الأخير لم يشر إلى أى مصدر استقى منه معلوماته !

وتضيف « دائرة المعارف اليهودية » أن إحدى هذه المناظرات أقيمت بأمر من البابا « بينديكت » واستمرت لسنة وتسعة شهور في طرطوسة ، ونستخلص من ذلك أن المسيحيين أعطوا اليهود أكبر وأطول فرصة للدفاع عن عقائدهم، وإلا فغير مفهوم أن تستمر المناظرة طوال هذه الفترة إذا كانت الكنيسة منحازة مسبقا ضد اليهود، كما يدعون باتهامها باللاسامية وكرهية اليهود .

مريم وعيسى :

ونذكر من هذا النوع محاكمة عادلة أجرتها الملكة « بلانش » في ٢٤ من يونيو سنة ١٢٤٠ م اعترف فيها اليهود بكثير من معتقداتهم الخطيرة، وكان مما ترجم من التلمود عن مريم والمسيح أثناء هذه المحاكمة ما يلي :

« إن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم ^(١) ، بين الزفت والنار وأن أمه أتت به من العسكري - الجندي - « باندرا » بمباشرة الزنا، وإن الكنائس النصرانية هي بمثابة قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع المسيحي لا يكون عهدا صحيحا يلتزم اليهودي القيام به، وأن من الواجب - دينا - أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني، وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل » .

ولسنا بصدد الحديث عن الكنائس وأصحابها وما يجرى فيها .. حتى لا يطول الحديث .

أما في الإسلام فحسبنا أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ
يَمْرُؤُا اقْنِي لِلَّذِي لَا بَأْسَ فَيُجَدِّي وَأَنْجِدِي أَنْفَكِ مَعَ الْوَالِدَيْنِ ﴾ ^(٢) .

وأى اصطفاء ؟! ^(٣) . وهو يختارها لتلقى النفخة المباشرة، كما تلقاها أول هذه الخليقة « آدم » ؟ وعرض هذه الحارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية .. وهو بلا جدال أمر عظيم ..

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود: ١١ وانظر أهم المناظرات في: التلمود: تاريخه وتعاليمه: ٤٤ هامش.

(٢) آل عمران: ٤٢ - ٤٣ .

(٣) في ظلال القرآن: ١ : ٣٩٥ وما بعدها بتصرف .

ولكنها - حتى ذلك الحين - لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم !

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى . وذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لامثال له في عالم الناس، فيزعموا أن وراءه سرا لا يشرف .. يحذوهم الحق اليهودى قبحهم الله !

وهنا تظهر عظمة هذا الدين القيم، ويتبين مصدره عن يقين .. فها هو ذا خاتم النبيين ﷺ الذى يلقي من أهل الكتاب ما يلقي من التكذيب والعنت والجدل .. هاهو ذا ينزل ينزل عليه من ربه قرآن كريم بحقيقة مريم وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذى يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو فى معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبررا لعدم إيمانهم بخاتم النبيين ﷺ !

أى صدق ؟ وأية عظمة ؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين القيم وصدق خاتم النبيين ﷺ !

إنه يتلقى « الحق » من ربه، عن مريم وعن عيسى عليه السلام، فيعلن هذا الحق، فى هذا المجال .. ولو لم يكن رسولا من الله الحق ما أظهر هذا القول فى هذا المجال بحال !

﴿ يَسْمِعُ أَقْوَمِي رَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيدا للأمر العظيم الخطير. ويشير السياق القرآنى إلى شىء من حكمة مساق القصص .. إنه إثبات الوحي ، الذى ينبىء النبى ﷺ بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب، فى هذا الأمر :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ نَأْتِهِمْ بِكِتَابٍ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١)

وهى إشارة إلى ما كان من تسابق إلى كفالة مريم .. وكل ذلك من الغيب الذى لم يكن خاتم النبيين حاضره، ولم يبلغ إلى علمه .. وربما كان من الأسرار التى لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن فى مواجهة أهل الكتاب دليلا على وحي من الله لخاتم النبيين ﷺ .. ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة . ولو كانت موضع جدال لجادلوه، وهم قد جاءوا للجدال !

(١) آل عمران : ٤٤ .

وينتقل السياق القرآنى إلى مولد عيسى : العجبة الكبرى فى عرف الناس، والشأن العادى للمشئة الطليقة:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِمْ وَسَمِعْتُهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيَكْلُمُ النَّاسَ فِي السُّهُدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ تُمَسِّسْنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى ابْنِ إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْكَلْمَةَ وَالْأَرْصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَمَا تَدْعُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٠١ ﴾

لقد تأملت مريم - إذن - بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقى هذا الفضل، واستقبال هذا الحادث، وهامى ذى تتلقى - لأول مرة - التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير ..
بشارة كاملة، وإفصاح عن الأمر كله.

بشارة بكلمة من الله .. وقد تضمنت نوعه واسمه ونسبه وصفته ومكانه من ربه ..
كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده، ولحة من مستقبله وسمته والموكب الذى ينتسب إليه :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِمْ وَسَمِعْتُهُمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِئًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١٠٠ وَيَكْلُمُ النَّاسَ فِي السُّهُدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٠١ ﴾

فأما مريم الفتاة العذراء الطاهرة المقيدة بمألوف البشر فى الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتطلع إلى كشف هذا الأمر الذى يحير عقل الإنسان :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ تُمَسِّسْنِي بَشَرًا ١٠٢ ﴾

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر، لطول ألفتهم
للأسباب والمسببات الظاهرة، لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود :

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب : كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى الواضح القريب !

وهكذا نبصر القرآن ينشئ التصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبيرة، بمثل هذا اليسر الفطرى القريب ..

وهكذا نراه يجلو الشبهات التى تثيرها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر فى القلوب وفى العقول سواء ..

ثم يتابع البشارة لمريم عن هذا الخلق الذى اختارها الله لإنجابه على غير مثال، وكيف ستمضى سيرته فى بنى إسرائيل .. وهنا تتمزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان فى سياق واحد، كأما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن الكريم :

﴿وَنُفِثَ إِلَيْكَ الْكَلِمَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ أَوْسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْكَلْبَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْئِي بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا لَكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَمَا تَلَّخَرُونَ فِي يُبُوتِكُمْ إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

ونبصر النص يذكر أن كل خارقة من هذه الخوارق التى جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله ، ولم يدع القول يتم ليذكر فى نهايته إذن الله زيادة فى الاحتياط، وهذه المعجزات فى عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها، أو رد العافية وهى فرع عن الحياة، ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية .. وهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى ، ومنحه الوجود والحياة على غير مثال، إلا مثال آدم .. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة !

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

إنه يعلن حقيقة التصور الاعتقادى التى قام عليها الدين: المعجزات التى جاءهم بها لم يجيء بها من عند نفسه. فماله قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله .. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله .. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على

السواء - فما هو رب وإنا هو عبد - وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الله، فلا عبودية إلا لله ..
ويختم قوله بالحقيقة الشاملة .. فتوحيد الله وعبادته، وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به:
« هذا صراط مستقيم » وماعداه عوج وانحراف . وماهو قطعاً بالدين ..

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته، هذه التى
ذكرت ملحقة بالبشارة .. ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه عليه السلام بالكفر من بنى
إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله :

﴿ قَالَا أَحْسَ عَيْسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرُ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَّا
بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٦ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُ بُنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ٥٧ ﴾ (١) .

لقد أحس عيسى الكفر من بنى إسرائيل ... بعدما أراهم كل تلك المعجزات التى
لا تهيأ لبشر، والتى تشهد بأن قدرة الله وراءها، وأن قوة الحق تؤيدها، وتؤيد من جاءت
على يده ... ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بنى إسرائيل بعض القيود
والتكاليف .. عندئذ دعا دعوته:

﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾

من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله، لأبلغ إليه،
وأؤدى عنه؟ لأنه لا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون
دعوته، ويبلغونها إلى من يليهم، ويقومون بعده عليها.

﴿ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَّا بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين، وأشهدوا عيسى عليه السلام على
إسلامهم هذا ، وانتدابهم لنصرة الحق أى نصره الرسول والدين ومنهجه فى الحياة .. ثم
اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به فى هذا الأمر الذى يقومون عليه:

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُ بُنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

وفى هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفترة ذات قيمة .. إن عهد المؤمن هو
ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بابلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد،

وانعقدت البيعة مع الله ، فهي باقية فى عنق المؤمن بعد الرسول.. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول . فليس الأمر مجرد عقيدة فى الضمير، ولكنه اتباع لمنهج، والاقتراء فيه بالرسول .. ثم عبارات أخرى تلفت النظر فى قول الحواريين: « فاكتبنا مع الشاهدين » .

فأى شهادة وأى شاهدين ؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى شهادة لهذا الدين .. شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء، وتؤيد الخير الذى يحمله هذا الدين للبشر ... وهو لا يؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين .. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالأحقية فى الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لا يؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم .. وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج، وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشرية .. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها، وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يدعى « شهيداً » .

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه .. أى أن يوفقهم ويعينهم فى أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد فى سبيل تحقيق منهجه فى الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ، ولو قدموا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من الشهداء على حق هذا الدين .

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل مسلم .. فهذا هو الإسلام، كما فهمه الحواريون . وكما هو فى ضمير الصادقين !

ويعضى السياق القرآنى إلى قوله .

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١)

جاء فى المنار : (٢) . أى ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله،

(١) آل عمران : ٥٤ .

(٢) تفسير المنار : ٣ : ٣١٥ .

وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة ، كذا قال الجمهور ..

وننتقل سريعا إلى قوله تعالى:

﴿إِنْ مَثَلْ عَيْسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقُوهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

إن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر. ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟

وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى - بسبب مولده - ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب.. أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب. وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني.. دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية. على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنسانا هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب: عنصر النفخة من روح الله في هذا وذاك! وإن هي إلا الكلمة: «كن» تنشيء ما تراد له النشأة «فيكون»!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة.. حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم، وحقيقة الخلق كله.. وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح ، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى.. سنة الخلق والنشأة جميعا!

وهذه هي طريقة «الذكر الحكيم» في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط، في أعقد القضايا، التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور!

معسكر واحد:

وإن تعجب فعجب أن ترى هذا التقارب وذلك التعاطف بين أتباع المسيح عليه السلام وهؤلاء الذين لعنهم الله، والذين قالوا زورا عن المسيح وأمه ما قالوا، مما يرده القرآن الكريم، والحديث النبوي، حتى وجدناهم أخيرا في معسكر واحد ضد الرسالة والرسول ﷺ، وبخاصة في فلسطين، بعد أن تحرك جيشنا في العاشر من رمضان وهدم خط «برليف»!

(١) سورة آل عمران: آية ٥٩.

شاهد على الحقيقة :

وندعو هؤلاء إلى قراءة كتيب « فضح التلمود: تعاليم الحاخامين السرية » للأب «برانايتس» الذى قامت منظمة «التشيككا» - أى المخابرات السوفيتية الشيوعية - بتصفيتهم إبان الأيام الأولى من الثورة البلشفية فى روسيا. فقد جاء فى مقدمة الطبعة الإنكليزية التى كتبها «ى. ان . سانشوارى» أنه يرسل أشعة فى طريق ذلك الذى أشعل ضوء العلانية - بالنسبة لأسرار التلمود - فى منشورات أخرى.

وجاء فى خاتمته: فى هذا الكتيب استشهدت فقط بقدر ضئيل جدا مما فى الكتب التلمودية التى تشير إلى المسيحيين وتحدث عنهم، وقد حذفت للإيجاز ورحمة بروحك الحساسة، الكثير الذى كنت أستطيع تضمينه هذا الكتيب مع ذلك، فإن هذه النصوص المستقاة من التلمود، التى يضمها هذا الكتيب، ستكون كافية للبرهنة على زيف روايات اليهود، عندما يدعون أن لا شىء فى التلمود يعلم بغض المسيحيين وعداوتهم .

وإذا كانت ستثيرك - عزيزى القارئ - دراسة التجديفات الرهيبة التى يشتمل عليها هذا الكتيب، فلا تنفس عن غضبك هذا بلومى، فأنا لم أقل فى البداية بأنى سأعرض أو سأنتقل إلى رواية أى شىء سار لطيف، لكنى أردت فقط أن أضع بين يديك ما الذى يعلمه «التلمود» حقا عن المسيحيين ولا أعتقد أن بإمكانى أن أفعل ذلك بطريقة ملائمة أكثر من هذه .

مع هذا، فإننى أدرك أنه بما أن الحقيقة لا ترضى الجميع، فثمة كثيرون سيصبحون أعدائى، لأننى صمدت إلى هذا الحد شاهدا على الحقيقة.

وقد نبهت إلى هذا الأمر وذكّرت به، عن طريق قوانين «التلمود» نفسه، التى تهدد «الخونة» بالموت. بل إننى حذّرت من أولئك الذين خبروا نشاطات اليهود إزاء الذين يعرفون الأمور غير المرضية عن اليهودية.

ولقد تنبأ الجميع بأننى سوف أموت بأيدى اليهود أنفسهم، وبغية الحيلولة دون انطلاقي قدما فى سبيل تحقيق عملى هذا، تَوَسَّلَ إلى فريق بأن أتذكر مصير البروفسور «تشارينى» الذى اغتيل على حين غرة، بعدما أخذ على عاتقه ترجمة «التلمود» إلى العامية.

وذكرنى فريق ثان بمصير الراهب «ديداكوس فى فيلنا»، المتحوّل عن اليهودية، الذى صرعوه بوحشية، وبمصائر آخرين لقوا من الاضطهاد أقسى ضروبه، لإفشائهم أسرار

الديانة اليهودية.

حتى إن فريقا ثالثا حذرني من خطر أولئك القريبين مني. وقد سمعت مئات المرات التحذير التالي باللغة البولونية:

« لكن اليهود سيقتلونك » .

إن الكتيب الذي بين يديك هو خير برهان على أنني لم أبال بتحذيرات أصدقائي هذه.

إنني أعتقد أنه ليس من الإنصاف أن أبقى صامتا للحفاظ على سلامتي الشخصية، بينما الصراع محتدم بين معسكري « الساميين » و « المعاد للسامية »^(١) كلاهما يدعى أنه يعمل من أجل الحقيقة، فيما أعرف أنا أن الحقيقة لا يمكن العثور عليها عند أى من المعسكرين..

ومهما يصيبني مما قلت، فسأتحمله بكل سرور.. بل إنني مستعد للتضحية بحياتي .

حتى أصمد شاهدا على الحقيقة « ١٢١ »

« آى . بى . برانائيس »

« المهم المحزن أن نعيد إلى الأذهان ملاحظة ما ذكر أعلاه، ونحن نقول: إن الأب «برانائيس» التقى فعلا بحتفه، كما تنبأه، على أيدي أعدائه اليهود إبان الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م فى روسيا » .

« ى . إن سانشوارى : مترجم الكتيب من اللاتينية إلى الإنكليزية » .

(١) يقصد المؤلف هنا طبعاً - كسائر الكتاب والمؤلفين الأجانب الذين يعتبرون اليهود ساميين - معسكري « اليهود » و « المعادين لليهود » .

أهم المراجع

- ١- الأدب العبري، للدكتور جوزيف باركلي، نيويورك ١٩٠١م
- ٢- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور علي عبد الواحد وافي، ط نهضة مصر.
- ٣- إظهار الحق، للشيخ رحمة الله الهندي، تقديم الأستاذ عمر الدسوقي.
- ٤- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوي، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٥- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، البابي الحلبي.
- ٦- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبري، البابي الحلبي، ط الثالثة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٧- تفسير القاسمي (محاسن التأويل) للقاسمي، تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي، ط أولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
- ٨- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٧م.
- ٩- التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، جمع محمد أويس القرني، تحقيق محمد حامد الفقي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٠- تفسير مقاتل (التفسير الكبير) لمقاتل بن سليمان، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته، مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- ١١- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- ١٢- التلمود: تاريخه وتعاليمه، للأستاذ ظفر الإسلام خان، دار النفائس، ط سادسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٣- التلمود شريعة إسرائيل، لجنة من الأساتذة، دار القاهرة للطباعة ١٩٥٧م.

- ١٤- جاهلية القرن العشرين، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق ١٣٩٥هـ -
١٩٧٥م.
- ١٥- دائرة المعارف اليهودية العامة: نيويورك ١٩٤٨م.
- ١٦- دائرة المعارف اليهودية: الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٠٣ - ١٩٠٥م.
- ١٧- دفاع عن الحديث النبوي وتفنيد شبهات خصومه، لجماعة من العلماء، ط
الإمام، القاهرة.
- ١٨- الرسالة، للشافعي، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر.
- ١٩- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من
زاد المسلم) للشنقيطي، ط مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
- ٢٠- سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر العربي.
- ٢١- سنن أبي داود، ط مصر، التجارية، الأولى وط المدينة المنورة.
- ٢٢- سنن الترمذي (الجامع الصحيح) للترمذي ط بولاق ١٢٩٢هـ والهند، والحلبى
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ٢٣- سنن النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي، وحاشية السندی، ط دار الكتاب
العربي، بيروت.
- ٢٤- صحيح البخاري، مع فتح الباري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض
الحديثة.
- ٢٥- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- ٢٦- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.
- ٢٧- عون المعبود: شرح سنن أبي داود، لابن القيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن
عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٢٨- فتح الباري: شرح صحيح البخاري، لابن حجر، الرياض الحديثة،
البطحاء، الرياض.
- ٢٩- الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطي، ترتيب

- يوسف النبهاني، ط دار الكتب العربية الكبرى.
- ٣٠- الفصل فى الملل والنحل، لابن حزم، وبهامشه الملل والنحل، للشهرستانى ، دار الفكر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٣١- فضح التلمود: تعاليم الحاخاميين السرية، للأب آى. بى . برانائيتس، إعداد الأستاذ زهدى الفاتح، دار النفائس.
- ٣٢- فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب دار الشروق، بيروت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- ٣٣- قصة الحضارة: لديورانت، ترجمة الأستاذ محمد بدران.
- ٣٤- الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.
- ٣٥- الكنز المرصود فى قواعد التلمود، للدكتور روهنج، ترجمة الدكتور يوسف رزق الله، القاهرة ١٨٩٩ م.
- ٣٦- مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.
- ٣٧- المسند - له أيضا - تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م.
- ٣٨- المغنى فى الضعفاء، للذهبى، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار المعارف، حلب.
- ٣٩- مقارنة الأديان: اليهودية، للدكتور أحمد شلبى النهضة المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ثانية ١٩٦٧ م.
- ٤٠- الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربى.
- ٤١- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى، عيسى البابى الحلبي.
- ٤٢- اليهودية والصهيونية، للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار الأندلس، بيروت، ط أولى ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م.
- وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

2
cc 2

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	الفصل الأول: عقيدة اليهود من أسفارهم
٩	إله كنعاني
١١	«عزيز ابن الله»
١٢	آلهة أخرى
١٤	انحطاط حيواني
١٩	الفصل الثاني: أضواء على التوراة
٢١	الأسفار المقدسة
٢٢	«هدى ونور»
٣٣	تحريف وتخريف
٤٧	الفصل الثالث: الأسفار وأنبياء بنى إسرائيل
٤٩	إسحاق ويعقوب
٥٤	لوط وبنتاه
٥٧	آل يعقوب
٥٩	موسى وهارون
٦١	داود وآله
٧٤	سليمان وأمه
٧٥	أخلاق يهود
٧٩	الفصل الرابع: ضلالات التلمود
٨١	التلمود ومكانته
٨٢	الله فى التلمود
٨٣	أرواح اليهود
٨٣	اليهود والسلطة
٨٣	غير اليهود
٨٣	اليهود والتملك
٨٤	مشروعية القتل
٨٥	اغتنصاب النساء
٨٥	القسم فى التلمود

٨٥	تدمير الهيكل
٨٨	الدين التلمودي والهندوسية
٨٩	خرافات التلمود
٨٩	التنجيم
٩٠	السحر
٩٠	أصل السحر الذى يعمل به اليهود
٩١	سبب النزول
٩٢	نبذ اليهود كتاب الله
٩٣	اشتغالهم بالسحر
٩٤	فى ظلال الآية
١٠٢	السحر فى بعض أنواعه كفر ومتعلمه كافر
١٠٢	من السبع الموبقات
١٠٢	حديث السحر
١٠٤	الحديث ثابت عند أهل العلم
١٠٥	متى كان السحر وما مدته؟
١٠٦	« التخييل » من قول عائشة على سبيل المبالغة
١٠٧	لا تصديق للمشركين ولا موافقة
١٠٩	أعلى درجات الصحيح السنييع
١٠٩	لا منافاة بين الآية والحديث
١٠٩	حكم المتواتر
١٠٩	الحديث من أعلام النبوة
١١٠	العرافة
١١١	قول الدكتور « جوزيف باركللى »
١١١	ماذا تقول العبرانية ؟
١١٢	حرق التلمود وإعدامه
١١٣	مناظرات بين المسيحيين واليهود
١١٤	مريم وعيسى
١٢٠	معسكر واحد
١٢١	شاهد على الحقيقة
١٢٣	أهم المراجع
١٢٧	الفهرس